الجُزءُ الثَّانِي

عبقرية الشريف الرضي

زكي مبارك

زكي مبارك

عبقرية الشريف الرضي

الجزء الثاني

الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠١١

مبارك، زكى، ١٨٩٣ ـ ١٩٥٣.
عبقرية الشريف الرضى/ زكى مبارك. ـ
القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.٢٠١١ .
مج٢ ؛ ٢٤ سم .
تدمك ١ ٧٨٦ ٤٢١ ٩٧٧ ٩٧٨
١ ـ الشعراء العرب.
٢ ـ الشريف الرضى، محمد بن الحسين بن موسى
أبو الحسن، ٩٧٠ ـ ١٠١٥.
أ ـ العنوان.
رقم الإيداع بدار الكتب ٤١٢٥/ ٢٠١١
I. S. B. N 978 - 977 - 421 -786 - 1
ديوى ٩٢٨,١١

الإشراف الفنى: **مادلين أيوب فرج**

تصميم الغلاف: **إبراهيم السعدنى**

الاصدقاء والاعداء

في حياة الشريف الرضي

أيها السادة

رأيتم فيما سلف ان الشريف الرضي كان يهجم على أقربائه في بعض الاحيان ، وعرفتم تفسير هذه الظاهرة النفسية ، فقد كان الشريف رجلا موصول الأواصر بالحيـــاة الاجتماعية والسياسية كان رجـــل فعل Homme d'action وكانت هذه الصفة تمنحه الفرص الثمينة لامتحان الرجال .

ولكن هل معنى ذلك انه لم يكن يعرف المودة والقرابة إلا لغايات نفعية ؟

لا ، ولكن معناه أنه كان ينتظر من الصديق والقريب أن يكون ساعده الأيمن في جميع الأحوال ، وقد كانت المكاره لا تغزوه إلا مـــن الثغور السياسية والاجتماعية ، فكان من المعقول أن تكون المناصرة في حروب المجتمع هي أساس ما يرجوه من الاقارب والأصدقاء .

ويمكن الحكم بأن الشريف تفرد من بين الشعراء بالاسراف في الكلام عن العدو والصديق ، كما تفرد بالاكثار من شرح العواطف البنوية ، وهذه نوازع يرجع بعضها إلى بعض ، وان اختلفت أصولها في مشاعر الوجدان .

وإلحاح الشريف في الكلام عن العداوة والصداقة يشعرنا بانه كان في نفسه أعنف عدو ، وأكرم صديق .

وأشعاره تحدثنا بانه كان يعرف في نفسه طهارة القلب وعذوبة الروح ، وإنه ليخاطب أحد أصدقائه فيقول :

سألقاك بالعهد عند المشيب وها أنا في حلية الأمرد
وإني إذا لم أجد ناصراً وجدتك أنصر لي من يدي
خذ الوقت واعلم بأن اللبيب ياخذ من يومه للغد
فما ينفع المرء بعد المنو ن قول النوادب لا تبعد[1]
على أنني تحفة للصديق يروح بنجواي أو يغتدي
واني ليأنس بي الزائرو ن أنس النواظر بالإثمد[2]
تغمض لي أعين الحاسدين كالشمس في ناظر الأرمد
فلا دخل البعد ما بيننا ولا فك منا يداً عن يد
وطول أيامنا بالمقا م في ظل عيش رقيق ندي

وهذه القطعة صريحة بانه كان يعرف في نفسه بشاشة القلب وبهجة الروح

وهذا الشعور هو الذي كان يدفعه إلى التالم لغربة قلبه بين القلوب كان يقول :

كفى حزناً أني صديق وصادق ومالي من بين الأنام صديق
فكيف أريغ الابعدين لخلة وهذا قريب غادر وشقيق

وكان يتلهف إلى الصديق المنشود فيقول :

من لي بغرة صاحب لايستطيل عليه عاب[3]
ما حارب الأيام إلا كان لي وله الغلاب

---

(١) من البعد وهو هنا الهلاك (٢) الإثمد بكسر الهمزة هو الكحل
(٣) العاب لغة في العيب

هيهات أطلب ما يطو ل به بعاد واقترابَ
قل الصحاب فان ظفر ت بنعمة كثر الصحاب
من لي به سمحاً إذا صفرت من القوم الوطاب[1]
من لي به يا دهر والأيام كالحة غضاب[2]

وهذه من نفثات القلوب الظماء إلى موارد الود الرفيق.

وكان الشريف يطرب لاجتماع اخوانه عنده، ويرى أنسه بلقائهم من فرص العيش، وكان يرى إدارة الاحاديث شبيهة بادارة الكؤوس كان يقول وقد اجتمع في بيته خمسة من الاصفياء :

نظمنا نظام العقد وداً وألفة وكان لنا البتيّ سلك نظام
أخي وابن عمي وابن حمد فانه تباريح قلبي خالياً وغرامي
وسادسنا الازدي ما شئت من أب
جواد ومن جد أغر همام
أحاديث تستدعي الوقور إلى الصبا
وتكسو حليم القوم ثوب عرام
فنضحي لها طربى بغير ترنم ونمسي لها سكرى بغير مدام[3]
تعالوا نول اللائمين تصامماً ونعص على الايام كل ملام
ونغتنم الأوقات إن بقاءها كمر غمام أو كحلم منام
من الله أستبقي صفاء يضمنا وطاعة أيام ودار مقام
وأستصرف الاعداء عنا فاننا مذ اليوم أغراض لكل مرام

وكان الشريف يعرف جيداً كيف يحفظ عهد الصديق، وكان له

---

(١) صفرت : خلت ، والوطاب الاوعية (٢) كالحة : عابسة
(٣) طربى جمع طربان وهو كالطروب

أصدقاء يواسونه أيام البؤس ، وفي أحدهم يقول :

يا ذاكر النعماء إن نسيت ... ومجدد المعروف إن درسا
ومنبه الآمـــال إن رقدت ... بالطول لا أغفي ولا نعسا
نصل إذا وقف النصول مضى ... جبل إذا اضطرب الجبال رسا
لله بحر ما هتفت به ... حتى استهل عليّ وانبجسا [1]
أجممت جمته ففاض بها ... يطأ الربا ويبلل اليبسا [2]
زخرت غواربه إليّ ولم ... يقل الرجاء لعلما وعسى [3]
وأغر مختلس مكارمه ... إن الكريم يرى الندى خلسا
غرس الصنائع ثم عاد بـــه ... عود الندى فسقى الذي غرسا

وله عبارات جيدة في تصوير الوداد ، كان يقول :

لقد حل ودك من مهجتي ... بحيث يقيل الاسى والأسا [4]

وكان يقول :

فلقد حللت من الفؤاد محلة ... في حيث ليس من الورى لك جار
فلئن وفيت فما الوفاء ببدعة ... إن الوفاء لذي الصفاء شعار
ولئن غدرت ولا عجيب إنه ... بعض الزمان ببعضه غدار
نفسي فداء الغادرين تباعدوا ... أو قاربوا أو أنصفوا أو جاروا

وقد أهدى اليه أحد أصدقائه رداء فلم يقبله ، فعتب عليه ذلك الصديق

---

(١) انبجس الماء سال وتدفق .

(٢) الجمة بضم الجيم معظم الماء ، والربا جمع ربوة وهي المكان المرتفع.

(٣) غوارب الماء أعالي موجه .

(٤) الاسى بفتح الهمزة الحزن ، والاسا جمع أسوة بضم الهمزة وهي العزاء ، ويقيل : ينزل ويحل .

فكتب اليه الشريف :

عقيد العلا لازلت تستعبد العلا | وتعتق منها رق كل أسير [1]
لئن خف من ضافي ردائك عاتقي | فودك يخطو في رداء قتيري [2]
ستعلم أن الثوب يدثر رسمه | ورسم الهوى في القلب غير دثور [3]
فلا تشمتن الحاسدين فسرهم | يشف لظني من وراء أمور

وقد يشتاق الشريف إلى إخوانه عند البعد ويحن اليهم أرق الحنين ، ويظهر أن بغداد على خشونتها في ذلك العهد لم تبخل عليه كل البخل ، فكان له فيها إخوان أوفياء ، وإلا فكيف صح له أن يقول :

أخلائي ببغداد | جنى دونكم الرمل
وحالت دون لقياكم | زحاليق النقا الزل [4]
لقد كنت شديد الضن | أن ينقطع الحبل
وأن ينصدع الشعب الذي | لوثم والشمل [5]
ولكني رعيت الار | ض ما طاب لي البقل
وعجلت النوى لما | فشا اللأواء والازل [6]
ندامای على الهم | سقى عهدكم الوبل
وحياكم برياه | جديد النور مخضل [7]

(١) العقيد والمعاقد هو المعاهد ، أي الذي يعهد الشيء ويلزمه ، فيقال عقيد الكرم وعقيد العلا أي الذي يلزم هذه الخلال .

(٢) الضافي : الطويل ، والقتير : الشيب (٣) يدثر : يبلى

(٤) في بعض نسخ الديوان (القنا) وفي بعضها (اللقا) وقد آثرنا كلمة (النقا) والزل بالضم المكان يزل فيه ، يريد وعورة الطريق .

(٥) الشعب بالفتح معناه هنا الجمع (٦) اللأواء : الشدة ، والازل : الضيق .

(٧) النور بفتح النون هو النوار بضمها وهو الزهر أو الابيض منه ، والمخضل المندى .

تذكرتكم والدمع لا وبل ولا طل
فما أخلفكم جار من الماقين منهل
وفي الايام ما يسلى ولكن أين من يسلو [1]

أيها السادة

ذلكم إحساس الشريف بقيمة الصداقة والاخوة ، ولكن هل هذا كل ما يملك ذلك القلب الطروب ؟ هيهات ، ففي قلب الشريف بقايا من العاصف ، الشوق إلى الاصدقاء الاصفياء ، وهو شوق لا نعرفه في هذه الايام ، لاننا نعيش في زمن عابس متجهم لا نكاد نرى فيه الناس حتى تتخير الاصدقاء ، في قلب الشريف بقايا من الحنان لا يعرفها غير ذلك القلب ، وأمثال ذلك القلب ، إن كان له أمثال .

هل سمعتم باخبار أبي الحسن البتي ؟ إنه كاتب من كبار الكتاب الذين أنجبهم العراق في القرن الرابع ، وقد نزلت مودته إلى الاعماق من قلب الشريف الرضي ، وحسبكم أن تعرفوا أن آخر شعر نظمه الشريف الرضي هو أبياته في رثاء ذلك الصديق ، وأكاد أجزم بان موت أبي الحسن البتي هو السبب في موت الشريف الرضي ، يشهد ذلك قوله في ذلك الرثاء :

ما للهموم كانها نار على قلبي تشب
والدمع لا يرقى له غرب كان العين غرب [2]
لوداع إخوان الشبا ب مضت مطاياهم تخب

---

(١) في الديوان (مايسلو) وهو تحريف.

(٢) الغرب عرق في العين يسيل منه الدمع ، والغرب أيضاً الدلو العظيمة ، وفي البيت جناس .

فارقتهم والعين عين بعدهم والقلب قلب [1]
ما كنت أحسب أنني جلد على الارزاء صعب
أو أنني أبقى وظهري بعد أقراني أجبّ [2]
لا الوجد منقطع الوقو دولا مزار الدار غب [3]
ما أخطأتك النائبات إذا أصابت مـــن تحب

وقد صحت فراسة الشريف ، فان النائبات لم تخطئه حين أصابت من يحب ، فمات بعد موت ذلك الصديق المحبوب باشهر معدودات، وغربة القلوب تقتل الرجال .

فان سألتم : وأين شعره في التشوق إلى ذلك الصديق ؟ فإنا نقدم اليكم البائية النفيسة التي نعرف بها كيف تسري المودة في القلب مسرى السحر في العيون ، وتجول في شعاب الروح كما يجول الصبا في قدود المـــلاح ، وتدخل على أصحاب الاذواق دخول البشرى بالامن بعد الخوف، وأنس اللقاء بعد وحشة الفراق ، وتصافح الانفس مصافحة الاماني العـــذاب ، وتعاقر أفواه المنشدين فتذكرهم معاقرة الرضاب ، قصيدة لا يقولها غير الشريف الرضي ، ولا يقدر قيمتها غير أرباب القلوب .

هات يا أبا الحسن ما قلت في أبي الحسن ، فقد اشتقنا اليه واليك :

أبا حسن أتحسب أن شوقي يقلُّ على معارضة الخطوب
وأنك في اللقاء تهيج وجدي وأمنحك السلوّ على المغيب
وكيف وأنت مجتمع الاماني ومجنى العيش ذي الورق الرطيب

---

(١) العين هي البـــاصرة ، وهي أيضاً الينبوع ، والقلب الفؤاد وهو ايضاً اسم ماء ، وبمراعاة الجناس يفهم البيت .

(٢) من الجبب بالتحريك وهو قطع السنام. (٣) المزار الغب هو القريب .

يهش لكم على العرفان قلبي		هشاشته إلى الزور الغريب[١]
وألفظ غيركم ويسوغ عندي		ودادكم مع الماء الشروب
ويسلس في أكفكم زمامي		ويعسو عند غيركم قضيبي[٢]
ولي شوق اليك أعلّ قلبي		ومالي غير قربك من طبيب
أغار عليك من خلوات غيري		كما غار المحب على الحبيب
وما أحظى إذا ما غبت عني		بحسن للزمان ولا بطيب
أشاق إذا ذكرتك من بعيد		وأطرب إن رأيتك من قريب
كانك قدمة الامل المرجى		عليّ وطلعة الفرج القريب
إذا بشرت عنك بقرب دار		نزا قلبي اليك من الوجيب[٣]
مراح الركب بشر بعد خمس		ببارقة تصوب على قليب[٤]
أسالم حين أبصرك الليالي		وأصفح للزمان عن الذنوب
وأنسى كل ما جنت الرزايا		عليّ من الفوادح والندوب[٥]
تميل بي الشكول اليك حتى		أميل إلى المقارب والنسيب[٦]

---

(١) الزور بفتح الزاي : الزائر (٢) يعسو : من قولهم عسا النبات إذا يبس (٣) نزا القلب وثب ، والوجيب : الخفوق .

(٤) المراح بكسر الميم هو النشاط والتبختر ، والقليب البئر ، والمعنى أنه يفرح حين يبشر بقرب صديقه كما يفرح الركب الظامىء حين يبشر بقرب الماء بعد ان يطول ظمأه خمسة أيام ، وهو خيال بدوي .

(٥) الندوب جمع ندب بفتح النون وهو الجرح .

(٦) في الديوان (الشكوك) وهو تحريف ، والشكول الامثال ، قال المتنبي : ليالي بعد الظاعنين شكول ... وقد وردت صواباً في الدالية التي رثى بها الصابي (فقدت ملاءمة الشكول بفقده) .

وتقرب في قبيل الفضل مني　　على بعد القبائل والشعوب
أكاد أريب فيك إذا التقينا　　من الانفاس والنظر المريب
وأين وجدت من قبلي شباباً　　يحن من الغرام على مشيب
إذا قرب المزار فانت مني　　مكان الروح من عقد الكروب
وإن بعد اللقاء على اشتياقي　　ترامقنا بالحاظ القلوب [1]

وهذا القلب الألوف كان يحمل الشريف ارضي على انتهاب أيام التلاقي خوفاً من عدوان الزمان، وانا لنراه يتعجل لقاء بعض اخوانه فيقول :

أأخيّ ما اتسع الزما　　ن على جماعتنا وضاقا
الا ليعقبنا اجتما　　عاً بالنوائب وافتراقا
سابق فليس تنال أغراض　　المنى إلا سباقا
من قبل أن ترد الخطو　　ب على مودتنا طراقا [2]
فازيد بعداً من لقـا　　ئك كلما ازددت اشتياقاً
وأراك تمنحني الصدو　　د وبعد لم أنو انطلاقا
إن كان ذا خوف الفرا　　ق فقد تعجلت الفراقا

وهذا القلب الالوف هو الذي كان يقفه موقف الصابر المتخشع وهو يعاني تقلبات القلوب ، وإلا فكيف جاز لمثله على إبائه أن يقول :

عذيري ممن ذم عهدي وقد نبا　　مراراً وقلبي وادع لا يذمه
تجرّم لما لم يجد لي زلة　　وأقصدني باللوم والجرم جرمه [3]

---

(١) في مثل هذا المعنى يقول التوحيدي : إذا تلاحظنا تساقينا كأس المودة وإذا تصامتنا تناجينا بلسان الثقة . انظر ص ١٤٢ من الجزء الثاني من كتاب (النثر الفني) .　(٢) الطراق بالكسر التتابع .　(٣) تجرم : تجني .

تعمدت بعدي عنه من غير سلوة ... ليعلمني يوم النوى كيف طعمه
وأجمته لا عن غناء وإنما ... لأشربه في حر خطب أجه [1]
واني وإن والى على القلب حربه ... لمنتظر أن يعقب الحرب سلمه
ولا تيأسن من عفو حر فإنما ... تحلمه باق إذا ضاع حلمه
أأطمع أن أنساك يوماً وإنما ... هواك ضجيع القلب مني وحلمه
يقر بعيني منظر أنت قيده ... ويعتاق قلبي مطلب أنت غنمه

وللشريف أشعار كثيرة في الصفح عن ذنوب الاصدقاء ، ولكن الدهر كان يبتليه أحياناً باخوان لا تغفر لهم ذنوب ، إخوان يميلون عليه مع الزمان فيسقونه كاس العلقم والصاب ، فنراه يتوجع بمثل هذا الشعر الحزين :

أمسى عليّ مع الزمان أخ ... قد كنت آمل يومه لغد
من كان أحنى عند نائبة ... من والدي وأبر من ولدي
لم يثمر الظن الجميل به ... فقدي من الظن الجميل قدي [2]
لو كان ما بيني وبينكم ... بيني وبين الذئب والأسد
لأويت من هذا إلى حرم ... ولجأت من هذا على عضد
ولأصبحا في الروع من عددي ... كرماً وفي اللأواء من عددي
ولمانعا عني إذا جعلت ... نوب الزمان تهيض من جلدي [3]
أو كان ما قدمت من مقة ... سبباً إلى البغضاء لم يزد [4]
بل لو قذفت بمدحتي لكم ... في البحر ذي الامواج والزبد

---

(١) أجمته : تركته يجم ويغزر ، أصل العبارة في الماء ثم نقلت إلى الود والمعروف . (٢) قدي : حسبي ، وكفى (٣) تهيض : تكسر وتجرح .
(٤) المقة بكسر الميم الحب ، وهي من ومق .

لرمى إليَّ أشف جوهرة وسقى بأعذب مائه بلدي
فلأجعلن عقوبتي أبداً أن لا أمد يدي إلى أحد
فتكون أول زلة سبقت مني وآخرها إلى الأبد

وهذه الزفرة تنقلنا إلى أشعاره في الثورة على الغادرين ، فنراه أحياناً يقف موقف اليائس من صحة الود فيقول :

تجاذبني يد الايام نفسي ويوشك أن يكون لها الغلاب
وتغدر بي الأقارب والأداني فلا عجب إذا غدر الصحاب

أو يقول :

لأي حبيب يحسن الرأي والود وأكثر هذا الناس ليس له عهد
أكل قريب لي بعيد بوده وكل صديق بين أضلعه حقد؟

أو يقول :

أشكو النوائب ثم اشكر فعلها لعظيم ما ألقى من الخلان
وإذا أمنت من الزمان فلا تكن إلا على حذر من الاخوان
كم من أخ تدعوه عند ملمة فيكون أعظم من يد الحدثان

وكان للشريف أصدقاء تعوزهم شجاعة الرجال فيسمحون لزوارهم باغتيابه ، وكانت الاخوة توجب أن يدفعوا عنه أوضار الاغتياب ، وقد وجه الكلام إلى أحد هؤلاء فقال :

ما رقع الواشون فيَّ ولفقوا قل لي فاما حاسد أو مشفق (١)
في كل يوم ظهر داري مغرب لكلامهم وجبين دارك مشرق
وإلى متى عودي على أيديهم ملقى ينيب دائماً ويحرّق (٢)

---

(١) الاشفاق هنا هو الجبن . (٢) ينيب : يعض بالأنياب .

كم يسبك الذهب المصفى مرة قدلاح جوهره وبان الرونق
يحلو لهم عرضي فيسترطونه ويصلُّ عرضهم الذليل فيبصق [1]
نفضوا عيوبهم علـــي وإنما وجدوا مصحا في الاديم فمزقوا [2]
من لي بمن إن بان عيب خليله غطاه من شانيه أو من يصدق
وإذا الحليم رمى بسر صديقه عمداً فاولى بالوداد الاحمق
جار الزمان فلا جواد يرتجى للنائبات ولا صديق يشفق
وطغى عليّ فكل رحب ضيق ان جلت فيه وكل حبل يخنق [3]

والشريف الذي يجيد حوك العتاب كان في بعض أحواله يكره العتاب، أعني أنه كان ينكر على اخوانه أن يعاتبوه، وهذا وجه آخر من صور النفس، كان الشريف كان يرى نفسه فوق العتاب، أو كانه كان يرى أن مثله لا يحتاج في رعاية الود الى عتاب، ولكن الحالة التي سنشير اليـــها يختلط فيها العتب بالوعيد، وهي تشرح أصول العداوات التي عاناها الشريف، والظاهر أنه كان كاكثر الناس يبغض من حيث كان يحب، فاكثر أعدائه هم في الاصل أصدقاء قدماء، ولا يبتلى الرجل بمحنة أشق من معاداة انسان كان يراه قبلا بعين الصديق.

وشواهد هذه الحالة النفسية كثيرة في شعر الشريف، ولكننا نكتفي بالقطعة الآتية:

نهنه عتابك الا ان هفا جرم بعض العتاب على الاخلاص متهم

---

(١) يسترطونه: يبتلعونه، وسرطه كذلك، ويصل: ينتن، يقال صل وأصل، والمعنى ان لحمي طاب فأكلوه، وانتنت لحومهم فبصقها الناس.

(٢) الأديم الجلد، ولا يمزق الا الجلد الصحيح.

(٣) في الديوان «قلت فيه» والاصوب ما أثبتناه.

مالي أقول فلا تصغي بسامعة | تصامم بك عن ذا القول ام صمم
رفقـــاً بانفك لا تشمخ على مضر
وانظر بعينك من زموا ومن خطموا [1]
فلست أول من راقت له حلل | ولست أول من راحت له نعم
من أضمر الصد عمن ليس يضمره | بغياً مشى في نواحي سره الندم
من أنهضته لقطع الود غدرته | كان المذمم منه الكف والقدم
من ساء ظناً بمن يهواه فارقه | وحرضته على إبعاده التهم
متى تجهم غدراً سر عهدكم | فان عهدي على غدر بكم حرم

أيها السادة

لقد ساقنا الكلام الى ضجر الشريف الرضي من الناس ، فلنتذكر أن هذا الرجل عاني في دهره أشق العداوات، وابتلته الحوادث بضروب من لؤم الخلائق ، ولكنه تماسك وقارع خصومه قراع الفحول ، وكان مع ذلك يعود الى نفسه فيدرسها من حين الى حين فيرى نفسه أعدى الاعداء، فهو بذلك من أحكم الناس اذ يقول :

أروم انتصافي من رجـــال اباعد | ونفسي أعدى لي من الناس أجمعا
اذا لم تكن نفس الفتى من صديقه | فلا يحدثن في خلة الدهر مطمعا [2]

ولو انه ألح في ترديد هذا المعنى لكان له مكان بين أساتذة الاخلاق، ولكن يكفي أنه تنبه الى هذا المعنى ، فهو كان يدرك بوحي الفطرة أننا نؤذي أنفسنا قبل أن يؤذينا النـــاس ، وان الشر لا يسقط علينا سقوط المطر من السماء ، وانما نستدعي الشر عامدين بما نسرف في مكايدة الانداد

---

(١) زم الانف وخطمه ضرب عليه الزمام والخطام، يصف مصر بقوة البأس.

(٢) الخلة بضم الخاء الصداقة المتينة .

والنظراء ، هو كان يفهم انه يتطلع الى انتهاب ما في أيدي الناس من المناصب العالية ، كان يفهم انه يحاول اموراً لو طاعت له لتبدلت في الجو السياسي والاجتماعي رسوم وشؤون ، كان يفهم ان اعلام الناس في عصره ليسوا أغبياء الى الحد الذي يسمح بان يجهلوا ما ينطوي عليه مثل صدره من غرض مبيت وسر مكنون .

والثورة على العيش الضيق وعلى حياة الخمول هي بداية الحرب بيننا وبين المجتمع ، فمن شاء أن يعيش في سلام مطلق فليكتف با كل العشب في البيداء ، ثم ليحترس أيضاً ففي البيداء خلائق تغار على ما فيها من مساقط الغيث ومنابت الاعشاب .

وكذلك نرى الشريف يتنبه الى أسباب العداوة بينه وبين الناس ونراه يداري الاعداء خوفاً من عواقب اللجاجة في تهييج الضغائن والحقود ، وهو الذي يقول :

تجاف عن الاعداء بقيا فربما ... كفيت ولم تعقر بناب ولا ظفر[1]
ولا تبر منهم كل عود تخافه ... فان الاعادي ينبتون مع الدهر
اذا شئت أن تبقى خلياً من العدى ... فعش عيش خال من علاء ومن وفر
اذا أنت أفنيت العرانين والذرى ... رمتك الليالي عن يد الخامل الغمر[2]
وهبك اتقيت السهم من حيث يتقي
فمن ليد ترميك من حيث لا تدري

---

(١) البقيا بمعنى الاستبقاء · وهو هنا صيانة النفس .

(٢) العرانين جمع عرنين بالكسر وهو الأنف او ما هو صلب من عظمه . والعرانين هنا الأشراف ، والذرى جمع ذروة وهي أعلا الشيء والغمر من لم يجرب الامور .

فهو بهذه الابيات يقرر أن سبب العداوة هو بسطة الجاه والمال ويشير بمداراة الاعداء ، لأن العداوة كالنار قد تخمد بعض الخمود ان سكتت عنها الريح او تناستها أفواه النافخين ،ويذكر ان الذي ينتصر على الاقوياء من الاعداء قد ترميه الليالي بايدي الضعفاء . ولو كنا نعرف مصادر المخاوف في كل وقت لدفعناها ، ولكن المخاوف تخفي مصادرها في كثير من الأحايين ، فمن الحزم أن لا نعرض أنفسنا للعداوات وهي أسباب المعاطب والحتوف .

وفي هذه القطعة اشارة الى معان كثيرة . وليت الشريف احتفل بهذه المعاني ، كما يتفق له ذلك في كثير من الاغراض، ولكن هذه الاشارة تفهمنا انه كان يخاف الضعفاء اكثر مما يخاف الاقوياء ، لأن الاقوياء شرهم هين ، اذ كانوا يحاربون باسلحة الرجال، أما الضعفاء فشرهم أخطر وأفظع اذ كانوا يدبون بالوشايات والنمائم كما تدب العقارب في حلك الظلام ، والعدو الضعيف مخلوق خطر ، لأن الضعف علمه الدهاء وبصره بأساليب الختل والخداع ، وكان من السهل أن يعمد الأعداء الضعفاء الى تهوين قدر الشريف في أنفس أهل العراق . ومثل الشريف كان يعتمد في حياته السياسية على قوتين : القوة الذاتية وحسن السمعة بين الناس .

وأعيذكم أن تظنوا أني أتكلف هذا الافتراض ، ففي ديوان الشريف شواهد نعرف بها أنه كان مبتلى باقوام يقرضون عرضه في الخفاء ، والا فكيف نفسر سكوته عن وصف الخمر مع ان وصفها كان من المذاهب التي سنها شعراء العراق ، وكان الشاعر العراقي يصف الخمر وان لم تمسسها شفتاه ، والشريف وصف الخمر فعلا ولكنه ينص في صلب الديوان على أنه سئل وصفها فاجاب .

ولا تنسوا أن الشريف غلبت عليه الصفة الأدبية ـ بالرغم من منزلته العلمية التي قضت بأن يكون له مدرسة فيـــها طلاب يتلقون دروسه في الصباح والمساء ـ والصفة الأدبية حين تغلب على رجل تعرّض سمعـــته لسيئات الظنون ، فقد كان شاع في البيئات العراقية أن الادباء والشعراء قوم لا يهمهم غير الهيام باودية الشياطين .

ولم يكن يسر الشريف الرضي أن يقال انه يتخلق باخلاق الشعراء لأنه كان يرشح نفسه لمناصب دينية لا يصلح لها إلا المعروفون بطهارة السر والعلانية ، والمشهورون بالتقى والعفاف ، وحسبكم أن تذكروا أنه كان يرشح نفسه لنقابة الأشراف وإمارة الحج وتولي القضاء ، وهي مناصب شائكة توجب على من يسمو اليها أن يتخوف عواقب الأقاويل والأراجيف

قد تسالون : وهل كان الشريف يكتم هذه المعاني ؟

ونجيب بانه كان يصرح بها في بعض الاحيان ، كان يقول :

واني إذا أبدى العدو سفاهـــة ... حبست عن العوراء فضل لسانيا [1]

وكنت إذا التاث الصديق قطعته ... وإن كان يوماً رائحاً كنت غاديا [2]

وكان يقول :

وإن مقام مثلي في الأعـــادي ... مقام البدر تنبحه الكلاب

رموني بالعيوب ملفـقات ... وقد علموا باني لا أعاب

وأني لا تدنسني المخازي ... وأني لا يروعني السباب

ولما لم يلاقوا فيّ عيبا ... كسوني من عيوبهم وعابوا

وكان يقول :

---

(١) العوراء الكلمة الفاحشة (٢) التاث الصديق : تغير ودّه

وجاهل نال من عرضي بلا سبب أمسكت عنه بلا عي ولا حصر
حمته عني المخــازي أن أعاقبه كذاك تحمي لحوم النود بالدبر [1]

وكان الشريف قد امتحن بجماعة من أقربائه يناصبونه العداء ، ونحن نعرف أسباب تلك العداوة ، فقد كانت هنـــاك مناصب موقوفة على الأشراف ، وكانت الحرب على تلك المنـــاصب لا تنفك مسعرة الضريم ، والهجوم على الاخوة وبني الاعمام باب معروف في الشعر العربي ، ولا يكاد يخلو منه ديوان ، فالشريف الرضي لا يبتدع هذا الفن ، ولكنه مع ذلك لا يفتعل هذا الفن ولا يقف فيه موقف المحاكين لعواطف القدماء ، وإنما يعبر عن عواطف ذاتية أنبتها في صدره عنف الاهل ولؤم الزمان ، ولو لا ذلك ما صح له أن يقول :

إذا أشر القريب عليك فاقطع بحد السيف قربى الاقرباء [2]
وكن إن عقك القرباء ممن يميل على الاخوة للاخاء
فرب أخ خليق بالتــقالي ومغترب جدير بالصفاء

وأن يقول:

وقل لبني عمنا الواجــدين بني عمنا بعض هذا الغضب [3]
أما آن للراقد المستمر في ظلم الغيِّ أن يستهب
سرحتم سفاهتكم في العقوق ولم تحفلوا الحلم لما غرب [4]
ولما أرنتم إران الجموح وماج بكم حبلكم واضطرب [5]

---

(١) الذود جماعة الابل ، والدبر بالتحريك قرحة تصيب الدواب .

(٢) اشر هنا معناها حقد (٣) الوجد هنا معناه الحقد

(٤) غرب : غاب . (٥) الاران : فورة النشاط .

أقمنا أنابيبكم بالثقاف وداوى الهناء مطال الجرب [١]
ويا ربما عاد سوء العقاب على المذنبين بحسن الأدب

وأن يقول :

ومولى يعاطيني الكؤوس تجملا وقد ودّ لو أن العقار نجيع [٢]
خبأت له ما بين جنبيّ فتكة دهته ويوم الغادرين شنيع

وأن يقول :

غمست يديّ في أمر فمن لي ؟ وأين ؟ بنزع كفي وانكفافي
كفاني أنني حرب لقومي وذلك لي من الضراء كاف
حطمت صعادهم حتى استقاموا مجاوزة بهم حدّ الثقاف [٣]
فصرت لذمهم غرضاً رجيماً يراموني بمثل حصا القذاف [٤]
وأكذب بالتصون مدعيهم وألجم قائليهم بالعفاف
ولو أني أطعت الرشد يوماً لأبدلت التحامل بالتجافي
وأغضيت اللواحظ عن ذنوب وموضعها لعيني غير خاف
ولكنّ الحمـــية فيّ تابى قراري للرجال على التكافي

«١» الانابيب جمع انبوب بضم الهمزة وهو كعب الرمح ، والثقاف تسوية الرماح . والهناء على وزن كتاب هو القطران وبه يداوى جرب الابل.

«٢» النجيع : الدم المائل الى السواد ، او هو دم الجوف .

«٣» الصعاد جمع صعدة وهي القناة المستوية تنبت كذلك .

«٤» حصا القذاف – على وزن كتاب – ما يرمى بالمنجنيق . ويراموني ، حذفت احدى النونين للتخفيف ، وهذا كثير جداً في اشعار الشريف كأن يقول:

لو ينصفوني الهوى ما كان عندهم يرد القلوب وعندي الشوق والارق

وكأن يقول :

سيذكروني ان نبا جانب من العدا وانحل عقد الزمان

وأنظر سبة وعظيم عار رضاي من المنازع بالكفاف
ولو أني رميت أصاب سهمي ولكني أنقب عن شغافي [١]
فما سهمي السديد من النوابي ولا باعي الطويل من الضعاف
ولي أنف كانف الليث يابى شميمي للمذلة واستيافي [٢]
وقد عرف العدا وبلوا قديماً خطاي إلى المنايا وازدلافي
لي العزم الذي قد جربوه يقدّ مضارب البيض الخفاف
أقلوا لا أبالكم وخلوا مطاعنة الاسنة بالأشافي [٣]
فقد مدت غيابات المخازي على عرصاتكم مد الطراف [٤]
صفوت لكم فرنقتم غديري وأي مضاغن رجع المصافي
ويوشك أن تقام على التقالي أنابيب رجعن إلى التصافي
مضى زمن التمازج والتدافي وذا زمن التزايل والتنافي
لئن أعلى بناءكم اصطناعي فسوف يثل عرشكم انحرافي
أداوي داءهم فيزيد خبثاً وليس لداء ذي البغضاء شاف
حنوت عليهم ولرب حان على جان وإن بعد التلافي
فما قلبي وإن جهلوا بقاس ولا حلمي وإن قطعوا بهاف
فما تغني القوادم من جناح تحامل إن قعدن به الخوافي
وعندي للزمان مسوّمات من الاشعار تخترق الفيافي
بوارد للغليل كأن قلبي يعبُّ بهن في برد النطاف.

«١» الشغاف على وزن سحاب غلاف القلب
«٢» الاستياف والسوف الشم.
«٣» الاشافي جمع الاشفى بكسر الهمزة وهو المثقب يخرز به .
«٤» الطراف على وزن كتاب بيت من أدم.

أسر بهن أقواماً وأرمي أقيواماً بثالثة الاثافي [1]

ويهمني أن أوجه أنظاركم إلى قوله في هذا القصيد :

وأكذب بالتصون مدعيهم وألجم قائليهم بالعفاف

فهو يؤيد ما افترضناه من قبل ، ويبين لكم ان الشريف كان يعرف ان هناك جماعة من الانذال يسوئون سمعته ويذيعون عنه الاباطيل ليغضوا من قدره بين الناس ، فيخلو لهم الجوّ إذ يقضي عليه التجريح الآثم بالخروج من الميدان .

...

ايها السادة

في ديوان الشريف أشعار كثيرة عن الاقارب والاصدقاء الذين يعرفون الرجل في أيام النعماء ، وينكرونه في أيام الباساء ، وهي أشعار جيدة . ولكنها في مراميها لا تعدُّ من المبتكرات ، لأنها مما تعاورته سهام الشعراء في القديم والحديث .

فلنترك هذه الناحية ونقف لحظة عند الازمة التي وقعت بين الرضي وأخيه المرتضى .

لا تحدثنا كتب التراجم عن أسباب الجفوة التي وقعت بين ذينك الأخوين ، ولكننا نعرف أنهما لم يكونا مؤتلفين كل الائتلاف ، لأن مذاهبهما في الحياة كانت مختلفة بعض الاختلاف ، ويمكن الحكم بان الرضي كان جمهوره من أهل الادب ، وأن المرتضى كان جمهوره من أهل

«١» المراد بثالثة الاثافي الداهية ، وثالثة الاثافي هي في الأصل الجبل ، وذلك انهم كانوا إذا لم يجدوا ثالثة الاثافي اسندوا القدر الى الجبل ، والاثفية بالضم والكسر الحجر توضع عليه القدر .

العلم ، وهنـــا تظهر أسباب المنافسة بين الاخوين ، فالرضي الشاعر كان عالمًا جليلا ، والمرتضى العـــالم كان شاعراً مجيداً ، ولا ندري متى يأتي الزمن الذي يسمح بأن نحدد خصائص هذين الاخوين ، ونبين ما يشتركان فيه ، وما يتفرد به كل منهما تفرداً لا يتطرق اليه الخلاف .

ولكن لا مندوحة من تقرير الواقع المؤلم ، وهو أن ذينك الاخوين عرفا كدر الاخوة بعد الصفاء ، وإن جهلنا حقائق الاسباب ، ولكن أي كدر ؟ تصوروا حال الشريف الرضي الذي مدح أخاه بكثير من القصائد الجياد ، وامتزج بحياته البيتية امتزاج الماء بالصهباء ، تصوروا حاله وهو يسمع ان اخاه يمسه بقوارص الاغتياب .

وهل في الدنيا وجه أقبح من وجه الاخ الذي يغتاب أخاه ؟ انها بلية دميمة لا يضنُّ بها الدهر الغادر عـــلى كرام الرجال ، وقد شرب الرضي كؤوس العلقم من يد الزمان ، ورأى من البلايا ما أنطقه بالشعر وهو في العشر من سنيه ورماه بالشيب وهو في سن العشرين ، ولكن هل تجور الدنيا إلى هذا الحدفيرى أخاه الشقيق وهو يمضغ عرضه بلا تورع ولا استحياء ؟ هل تقصد الدنيا هذا الفساد فنرى المرتضى والرضي يتباغضان ويتحاقدان بعد أن جمعتهما الايام تحت جناحي أم رءوم تروضهما على المودة والعطف وهي ترى الدنيا في وجهيهما حين زج زوجها في غياهب الاعتقال ؟

ما هي الاخيلة التي طافت برأس الشريف وهو يعادي أخاه ؟ إن الجبال أخف وزناً من الهموم التي تساور الشاعر حين يبغض من يحب ، والسم أحلى مذاقاً من ورود الشاعر بحر القطيعة ، قطيعة الاخ المحبوب ، فماذا صنع صديقنا الشريف الرضي في تلك الايام السود ؟ ما الذي عاناه وهو يستعد لذلك النضال المشئوم ؟ وما هو الغم الذي سيطر عليه حتى

استباح لنفسه أن يهجم على أخيه ، وهو يعلم أن ذلك الاخ هو كل ما بقي له من الثروة الروحية في زمن كان يزخر بالمهالك والخطوب !

ولا تنسوا أيها السادة أننا نتحدث عن شاعر كان يعيش في بغداد في النصف الثاني من القرن الرابع ، وهو من أقسى العصور التي عانتها بغداد لانها لم تكن تختار ملوكها ولا وزراءها في ذلك العهد وانما كانت تفرض عليها الملوك وفقاً لعدوان المطامع بين الديلم والاتراك ولم يبق لاهل بغداد من أسباب الجاه الا ما توارثوه من المناصب بفضل التقاليد ، وكان من أهم ما توارثوه مناصب القضاء ، وكانت هذه المناصب مما يملك الفقهاء البغداديون ، السنيون والشيعيون ، فلم يكن بد من أن يتعاطفوا ، وتشيع بينهم القالة الحسنة والصيت الجميل .

فاذا نقل الواشون الى الرضي ان اخاه المرتضى يسلقه في غيبته بلسان حديد فانما يصورون له مجداً يتقلص وملكاً يضيع .

وماذا يبقى للرضي ان ضاعت منه مودة ذلك الشقيق ؟

هو مع الملوك في حرب ، ومع الخلفاء في حرب ، ومع المنافسين في نضال ، والعراق على اتساع حواضره وبواديه يضيق عن تأسيس الثروة والمجد من جديد ، لأن الثورات لم تترك فيه مجالا لأيدي الفلاحين فضلا عن الشعراء والعلماء .

اعذروني أيها السادة اذا وقفت عند هذه المعضلة النفسية ، فانا أحب أن أعتذر عن الشريف الرضي ، احب أن أقول انه لم يهجم على أخيه الا بعد ان ضاقت في وجهه مسالك الصفح الجميل ، وكان في مقدوري أن أحكم بان أهل العراق قوم تغلب عليهم دقة الاحساس فهم يغضبون لأول بادرة ، ولا يفكرون في العواقب عند الصيال ولكن ماضي

العراق يشهد بأن أهله كانوا من أقدر الناس على تحليل العواطف والاحاسيس ومؤلفات فلاسفته تنطق بأنهم كانوا من أشوق الناس إلى درس أصول الحب والبغض ، فمن العسير أن نصدق أن الرضي هجم على أخيه إلا بعد أن طفح الكيل ، وعز الوفاق .

ولكن ما بالنا نشغل أنفسنا بهذه الدقائق النفسية ؟ يكفي أن نعرف أن الرضي عرف في حياته لوناً أسود هو الاضطغان على الاخ الشقيق، وأنه لم يرد ذلك المورد إلا وهو آسف محزون ، وقد نظم في ذلك قصيدة ضادية هي أعظم ما نظم في قافية الضاد . وقد تأثر بها الضادية التي اختارها أبو تمام في الحماسة ، فجاءت ضاديته أبلغ وأروع ، والشعراء يعدي بعضهم بعضاً بالعواطف والأحاسيس ، ولننظر كيف يقول :

رضيت من الاحباب دون الذي يرضى
ودانيت من تقضى الديون ولا يقضي
وقد أنهرت فيَّ الليالي جراحها
مراراً وأنضاني من الهم ما ينضى (١)
طوى الدهر أسباب الهوى عن جوانحي
وحل الصبا عقد الرحائل عن نقضي (٢)
ولم يبق لي في الاعين النجل طربة
ولا أرب عند الشباب الذى يمضي
ضحا اليوم عن ظل الشبيبة مفرقي
وأبدل مسودّ العذار بمبيض (٣)

«١» أنهر الجرح وسعه . وانضاه اهزله واضناه . «٢» النقض بالكسر المهزول من السير «٣» ضحا : برز للشمس ، والمفرق بفتح الراء وكسرها وسط الرأس وهو الذي يفرق منه الشعر .

أتاني ومطول مـــن الناي بيننا
قوارص تنبو بالجفون عن الغمض (١)

ومولى ورى قلبي بلذعـــة ميسم
من الكلم العوراء مضا على مض (٢)

فعذراً لأعدائي إذا كان أقربي
يشذب من عودي ويعرق من نحضي (٣)

إذا ما رمى عرضي القريب بسهمه
عذرت بعيد القوم إما رمى عرضي

ألم ياته أني تفردت بعده
روابي للعلياء جاش لها نهضي

وأني جعلت الأنف من كل حاسد
قبالي وخدي كل مضطغن أرضي (٤)

وكم مـن مقام دون مجـدك قمته
على زلق بين النوائب أو دحض (٥)

وقارعت من أعياك قبل قراعه
فداجني بعد التشارر والبغض (٦)

«١» القوارص : الـكلمات الجافية «١» المولى : القريب . ورى القلب : كواه . والميسم مايكوى به . «٣» يشذب : يقطع ، والنحض : اللحم «٤» القبال على وزن كتاب هو من النعل زمام بين الاصبع الوسطى والتي تليها .
«٥» الدحض قريب من معناه في الزلق . (٦) داجه هنا معناه صالحه ، والتشاور فك إدغامها للوزن ، وهذا يقع كثيراً جداً في شعر الشريف . وفي نسخة الديوان « التشاور » وهو تحريف .

لقد أمست الارحام منا على شفا
فاخلق بمشف لا يعلل أن يقضي [1]
رأيت مخيلات العقوق مليحة
فلا تجعلن برق الاذى صادق الومض [2]
ولا تشمتن من ودّ لو أننا معاً
شجيجان تلطينا الجنادل بالارض [3]
إذا كنت أغضى والقواذع جمة
فمثلك أولى أن يرمّ وأن يغضي [4]
على غصص لو كنّ في القدر لم ينر
وفي العود لم يورق وفي السهم لم يمض
رزئتك حيا بالقطيعة والقلي
وبعض الرزايا قبل يوم الفتى المقضي
أناديك فارجع من قريب فاني
إذا ضاق بي ذرعي مضيت كما تمضي [5]
لقد كان في حكم الوشائج لو رأى
عن المجد بطئي أن يبالغ في حضي [6]

«١» الشفا حرف كل شيء . يريد ان الارحام اصبحت على شفا الهاوية والمشفى المشرف على الهلاك ، ويعلل : يعالج . ويقضي : يموت .

«٢» المخيلات جمع مخيلة وهي من اخيلت السماء إذا تهيأت للمطر ، والمليحة من ألاح البرق إذا اومض «٣» الشجيجان مثنى شجيج وهو المجروح . وفي الديوان « شحيحان » بحاءين مهملتين وهو تحريف. «٤» يرم : يسكت .

«٥» هذا بيت القصيد «٦» الوشائج جمع وشيجة وهي هنا رباط القرابة .

فكيف ولم تحرج منـــاديح همتي

ولا ذمت العلياء بسطي ولا قبضي[1]

إذا هو أغضى ناظريَّ على القـــذى

وكان لمثلي مسخطاً فلمن يرضي

خليلي ما عودي لأول غامز

ولا زبد وطبي للمقيم على مخضي[2]

فقل للعدا عضوا الاخامص إنكم

تعرقتم الأيدي عليَّ مـــن العض[3]

هم نقضوا مـــا قـــد بنى أولوهم

وشدنا وهيهات البناء من النقض

أفي كل يوم يصبغ العـــار منهم

رداء امرىء والعار باق على الرحض[4]

يريدون أن يخفوا النواقر بيننا

وقد صاحت الاضغان في الحدق المرض[5]

ذكرت حفاظي والحفيظة في الحشا

لهـــا نغضان العرق يحفز بالنبض

«١» تحرج : تضيق . وفي الديوان « تخرج » بالخاء المعجمة وهو تحريف ، والمناديح : المسالك . «٢» الغامز الذي يختبر العود ، والوطب : سقاء اللبن وهو من جلد ، والمخض أخذ الزبد من اللبن . «٣» الاخامص جمع الأخمص وهو من باطن القدم ما لا يصيب الأرض ، والتعرق أكل اللحم . «٤» الرحض : الغسل . «٥» النواقر جمع ناقرة وهي الداهية والمراد بها الحقد .

دعوتكم قبل التي لا شوى لها (١)

وقلت لكم فيئوا إلى الخلق المرضي

ردوني غيراً قبل أن أحمل القذى

فلا تردوا إلا على الثمد البرض (٢)

ولسوا جميمي قبـــل أن يمنع الحمى

إبائي أو يوبي على رعيكم حمضي (٣)

ومن قبل أن يسدى المعادون بيننا

برود الخناماشئت في الطول والعرض (٤)

ولا تركبوا سيساء داميـــة القرا

بلا حقب تطوى البلاد ولا غرض (٥)

تقوا عار حرب لا يعود مثيرها

وإن غلب الاقران إلا على رمض (٦)

ولا تولجوا زور العقوق بيوتكم

أناشدكم بالله في الحسب المحض

«١» قبل التي لا شوى لها : أي قبل الضربة القاضية . «٢» النمير الماء الصافي. الثمد بسكون الميم ويحرك بقية الماء ، والبرض القليل .

«٣» اللس الأكل واللحس ونتف الدابة الكلأ بمقدم فمها ، والجميم النبت الكثير أو الناهض المنتشر ، يوبي : يفسد . والحمض ما ملح وامر من النبات ، وهو للابل كالفاكهة للانسان . «٤» يسدى من السدى وهو ما مد من الثوب .

«٥» السيساء بالكسر حارك الفرس وظهر الحمار . والقرا: الظهر ، والحقب بالتحريك الحزام او حبل يشد به الرحل ، والغرض للرحل كالحزام للسرج .

«٦» تقوا : اتقوا ، والرمض شدة وقع الشمس على الرمل.

أراهـا بعين الظن حمراء جهمة
ستجري إلى عار العواقب أو تفضي
تهضمني من لا يكون لغيره
من الناس إطراقي على الهون أو غضي
أفوّق نبل القول بيني وبينه
فيؤلمني من قبل نزعي بها عرضي[١]
وأرجع لم أولغ لساني في دمي
ولم أدم أعضائي بنهش ولا عض
إذا اضطرمت ما بين جنبيّ غضبة
وكاد فمي يمضي من القول ما يمضي
شفعت على نفسي بنفسي فكفكفت
من الغيظ واستعطفت بعضي على بعضي

ولم تطل الجفوة بين الاخوين فكتب المرتضى إلى أخيه الرضي قصيدة جيدة نتخير منها الأبيات الآتية :

تكشف ظل العتب عن غرة العهد
وأعدى اقتراب الوصل منا على البعد
تجنبني من لست عن بعض هجره
صفوحاً ولا في قسوة عنه بالجلد
نضته يد الاعتاب عما سخطته
كما ينتضي العضب الجراز من الغمد[٢]

«١» فوق النبل رماه مسدداً . «٢» الاعتاب : الترضية .

وكنت على ما جره الهجر ممسكا
بحبل وفاء غير منفصم العقد
أمين نواحي السر لم تسر غدرة
ببالي ولم أحفل ببلاغية الصد
تلين على مس الانحاء مضاربي
وإن كنت في الأقوام مستخشن الجلد[1]
ولما استمر البين في عدوائه
تغول عفوي أو ترقى إلى جهدي[2]
أصاحب حسن الظن والشك مقبل
بوجهي إلى حيث استمرت عرى الود[3]
إذا اتسعت في خطة الصد فكرتي
تجللني هم يضيق به جلدي
وإن ناكرتني خلة من خلاله
تعرض قلبي يفتديها من الحقد[4]
يخال رجال ما رأوا لضلالة
ولن تستشف الشمس بالأعين الرمد
إذا تركت يمنى يديك تعلقي
فيا ليت شعري من تمسّك من بعدي

«١» في الديوان « مستحسن » بالسين والحاء المهملتين وهو تحريف .
«٢» العدواء : بضم العين وفتح الدال : الشدة، وهي في الأصل الارض الصلبة
«٣» استمرت : قويت ، وفي الاصل « استترت » وهو تحريف ، وقد تكلف شارح الطبعة البيروتية ، والصواب ما اثبتناه «٤» الخلة بالفتح الخصلة .

إياباً فلم تشرف على غاية النوى
ولم تتأكل النأي عن سنن القصد
ولو لم يلاق الزند قدحاً بمثله [١]
لما انبعثت شهب الشرار من الزند
هلمّ نعد صفو الوداد كما بدا
إعادة من لم يلف عن ذاك من بدٍّ
ونغتنم الايام فهي طوائش
تواتى بلا قصد وتأبى بلا عمد
ومثلك أهدى أن يقاد إلى الهدى
وأرشد أن ينحاز من جهة الرشد

وقد انعطف الرضي حين وصلت اليه هذه القصيدة وجنح إلى السلم، فارسل إلى أخيه قصيدة طويلة نكتفي منها بالقطعة الآتية :

وأعظم ما لاقيت شجواً ولوعة
عتاب أخ فلّ الزمان به حدي
أقيك الردى ما كان ما كان عن قلى
ولكن هنات كدن يلعبن بالجد [٢]
ولا تحسبن العتب جازت كلومه [٣]
إلى القلب إلا بعد ما حز في الجلد

«١» في الديوان : ولم لا يلاق القدح زنداً بمثله . وهو شطر محرف .
«٢» في الديوان « بالجلد » وهو تحريف .
«٣» الكلوم جمع كلم بالفتح وهو الجرح .

منحتك ما عندي من الصد معلناً
وعقد ضميري أن أدوم على الود
وقد كنت أبغي رتبة بعد رتبة
فآنف لي من أن أفوز بها وحدي
حفاظاً على القربى الرءوم وغيرة
على الحسب الداني وبقيا على المجد
حسدت عليك الاجنبين محبة
ونافست فيك الابعدين على الود
وقد كان لذع فاتقيت شباته
بقلب على الضراء كالحجر الصلد[1]
تجلدت حتى لم تجد فيّ مغمزاً
وعدت كما عاد الجراز إلى الغمد
وها أنا عريان الجنان من التي
تسوء ومنفوض الضلوع من الوجد
أقلّب عيناً في الاخاء صحيحة
إذا ارتمت الأعداء بالأعين الرمد
وإني مذ عاد التودد بيننا
تجلى الدجى عن ناظري ووری زندي
وعاد زماني بعدما غاض حسنه
أنيقاً كبرد العصب أو زمن الورد[2]

«١» الشاة إبرة العقرب وحد كل شيء «٢» العصب ضرب من البرود.

وكنت سليب الكف من كل ثروة
فاصبحت من نيل الاماني على وعد
وفارقت ضيق الصدر عنك إلى الرضا
كما نشط المأسور من حلق القد
وقد ضمني محض الصفاء وصدقه
اليك كما ضمت ذراع إلى عضد

أيها السادة :

لقد كان الرضي شاعراً يرضى ويغضب ، ويخشن ويلين ، كان يأسره الشوق إلى الصديق فيقول :

لقاؤك جرَّ عليَّ الفراقا وما زادني القرب إلا اشتياقا
جلوت عليَّ هديَّ الوداد فاسلفتها بالقبول الصداقا [1]
وأسرفت بالبشر حتى ظننـ ـت أنك أضجعت فيه النفاقا
وحاشاك من تهمة في المغيب فكيف حضور يضم الرفاقا
وكان الزعيم بهذا الإخا ء يوماً حسوناه كاساً دهاقا
نحرنا الدنان على صدره فلله أي دمـــاء أراقا
شرقنا بلذاته والسرور يلوى ازاراً ويرخي نطاقا
سقى الله دهراً حبانا الودا د مبتدهاً فشكرنا العراقا
وما زلت أعجب من حفظه لنا القرب حتى نسينا الفراقا
أتقتص من جسدي بالبعاد وما زود الباع منك العناقا

وكان يغضب على المغتابين فيقول :

وغر آكل بالغيب لحمي وإن لأكله داء عياء

---

(١) الهديّ على وزن غنيّ : العروس .

يسيء القول إما غبت عنه ويحسن لي التجمل واللقاء
عبات له وسوف يعبُّ فيها من الضراء آنية ملاء

وكان يوازن بين عداوة الاقارب وعداوة الأباعد فيقول :

للذل بين الأقربين مضاضة والذل ما بين الاباعد أروح
وإذا رمتك من الرجال قوارص
فسهام ذي القربى القريبة أجرح

وكان يتشبث بابناء عمه فيقول :

إذا لم يكن لي ناصر من عشيرتي
فلي من يد المولى وإن ذلَّ ناصر [1]
وإني وإن قلوا لمستمسك بهم
وقد تمسك الساق المهيض الجبائر [2]

أو يقول :

لويت إلى ود العشيرة جانبي على عظم داء بيننا متفاقم
ونمت عن الاضغان حتى تلاحمت
جوائف هاتيك الندوب القدائم [3]
وقلمت أظفاري وكنت أعدها لتمزيق قربى بيننا والمحارم
وروَّحت حلمي بعدما عزبت به
ذنوب بني عمي عزوب السوائم
وأوطات أقوال الوشاة أخامصي
وقد كان سمعي مدرجاً للنمائم

«١» المولى ابن العم «٢» الجبائر جمع جبيرة وهي العيدان التي تجبر بها العظام
«٣» الجوائف جمع جائفة وهي طعنة تبلغ الجوف .

أو يمنُّ عليهم بالحلم فيقول :

بني عمي وعز على يميني من الضراء ما لقيت شمالي
أعود على عقوقكم بحلمي إذا خطر العقوق لكم ببالي
أروني من يقوم لكم مقامي أروني من يقول لكم مقالي
ومن يحمي الحريم مـــن الأعادي
ومـــن يشفي من الداء العضال
يشابح دونكم يوم المنايا ويرمي عنكم يوم النضال[1]
وربَّ قوارص نكتت جناني[2]
أشدُّ عليَّ من صرد النبال[3]
صبرت لها ولم أردد مقالا فكان جزاء قائلها فعالي

أو يهددهم فيقول :

هبوا أصولكم أصلي على مضض
ما تصنعون بأخلاق تنافيني
كم الهوان كأني بينكم جمل في كل يوم قطيع الذل يحدوني
لا تأمنن عدواً لان جانبه خشونة الصل عقبى ذلك اللين
واحذر شرارة من أطفأت جمرته
فالثأر غض وإن بقّى إلى حين
إني تهيب بي البقيا وأتبعها فكم أباقي بها من لا يباقيني
توقعوها فقد شبت بوارقها بعارض كصريم الليل مدخون
إذا غدا الافق الغربيُّ مختمراً من الغبار فظنوابي وظنوني

«١» يشابح : يقاتل. «٢» النكت : الضرب .
«٣» الصرد : وقع النبال ، وهو ايضاً مسمار في السنان يشك به الرمح.

أو يصارحهم بالقطيعة فيقول :

قد يقدع المرء وإن كان ابن عم ويقطع العضو الكريم للألم

أو يعلن اليأس من الناس جميعاً فيقول :

أكرّ طرفي فلا أرى أحـــداً إلا مغيظاً عليَّ مضطغنا
ينبض لي من لسانه أبـــداً نصال ذم تمزق الجننا

أيها السادة

تلكم صور نفسية تمر بخواطر الشعراء ، ولها في الشعر القـــديم والحديث أمثال، ولكن الشريف تفرد بقصيدة يتيمة لم يقل مثلها أحد من القدماء والمحدثين، فكان أوحد الناس في الدعوة إلى استبقاء الصديق ، إذ يقول :

وكم صاحب كالرمح زاغت كعوبه
أبى بعـــد طول الغمز أن يتقوما
تقبلت منه ظاهراً متبلجا وأدمج دوني باطناً أن متجهما
فأبدى كروض الحزن رقت فروعه
وأضمر كالليل الخداريّ مظلما [1]
ولو أنني كشفته عن ضميره أقمت على ما بيننا اليوم مأتما
فلا باسطاً بالسوء إن نالني يداً ولا فاغراً بالذم إن رابني فما
كعضو رمت فيه الليالي بقادح [2]
ومن حمل العضو الاليم تألمـــا
إذا أمر الطب اللبيب بقطعه أقول عسى ضنا به ولعلما

---

[1] الخداري بالضم المظلم .

[2] القادح أكال يقع في الشجر والاسنان والصدع في العود .

صبرت على إيلامـــه خوف نقصه
ومن لام من لا يرعوي كان ألوما
هي الكف مض تركها بعد دائهـــا
وإن قطعت شانت ذراعاً ومعصما
أراك على قلبي وإن كنت عاصياً
أعزّ من القلب المطيع وأكرمـــا
حملتك حمل العين لج بها القذى
فلا تنجلي يوماً ولا تبلغ العمى
دع المرء مطوياً على مـــا ذممته
ولا تنشر الداء العضال فتندما
إذا العضو لم يؤلمـــك الا قطعته
على مضض لم تبق لحماً ولا دما
ومن لم يوطن للصغير من الأذى
تعرض أن يلقى أجل وأعظما (١)

«١» في الطبعة الثانية من كتاب « الموازنة بين الشعراء » بيان للاصول التي أخذ منها الشريف الرضي هذا المعنى الجميل ، فليرجع اليه القارىء إن شاء.

اسرار العلائق

بين الرضي والصابي

أيها السادة

رأيتم في المحاضرة الماضية ألواناً من تاثير الصداقة والعداوة في حياة الشريف الرضي ، وشهدتم أننا وقفنا وقفة قصيرة عند صلته بصديقه أبي الحسن البتي وخصومته مع أخيه الشريف المرتضى ، وتذكرون أنه أشار إلى صديق اسمه ابن حمد ، إذ قال في الحديث عمن اجتمعوا عنده في مجلس أنس .

أخي وابن عمي وابن حمد فانه تباريح قلبي خالياً وغرامي

فلنقل اليوم إن ابن احمد هذا كانت له مكانة في أواخر القرن الرابع ، وقد رافق الرضي في طريق الحج سنة ٣٩٤ وفيه يقول :

وكنت إذا ضاقت مناديح خـــطة
دعوت ابن حمد دعوة فاجابها
أخ لي إن اعيت عليَّ مطالبي رمى لي أغراض المنى فاصابها
إذا استبهمت علياء لا يهتدى لها
قرعت بـــه دون الأخلاء بابها
به خف عني ثقل فادحة النوى وحبب عندي نايها واغترابها
ثمانون من ليل التمام نجوبهـــا رفيقين تكسونا الدياجي ثيابها

وهناك صديق آخر يسمى ابن ليلى كان له في نفس الرضي أثر بليغ ، وسنعرض له في غير هذا الحديث .

والمهم في هذه الليلة أن نشرح أسرار العلائق بين الرضي والصابي فنقول :

كانت صلة الصابي باسرة الشريف الرضي قديمة العهد، وكان الرضي وهو طفل يسمع أن في دنيا الادب والسياسة رجلا كريم الشمائل اسمه أبو اسحاق الصابي ، وكان يسمع أنه من أصدقاء أبيه الاصفياء .

وما نعرف بالضبط متى ابتدأت صداقة الصابي لابي أحمد الموسوي والد الشريف ، ولكننا نستطيع أن نؤكد أن شواهدها القوية ظهرت سنة ٣٥٤ قبل أن يولد الشريف باكثر من أربع سنين .

وتلك الشواهد القوية هي العواطف التي ظهرت في كتابة التقليد وهو المنشور الذي كتبه الصابي عن الخليفة المطيع لله بتقليد أبي أحمد الموسوي نقابة الطالبيين .

واليكم فقرات من ذلك المنشور لتعرفوا جوهر تلكم العواطف :

« أما بعد فان أمير المؤمنين لما يعرفه من تيقظك وحزمك وتحفظك يرى أن ينوط بك من سني الاعمال ما يستمتع فيه بكفايتك ويستثمر معه المخيلة في دينك وأمانتك ، ويفرع بك من أعلا المراتب ما يضاهي رأيه في في أمثالك من أعيان دولته ، وذوي التحقق بدعوته والاعتصام بحبله ، جريا من أمير المؤمنين على شاكلته في الارتياد لمواقع معروفه ، وتخير من يؤهله لتكريمه وتشريفه ، حتى يلبس إنعامه من يستحق التفضل عليه ، ويحمد منته من بين أثر التوفيق في الإحسان اليه .... ولذلك رأى أمير المؤمنين أن يقلدك النقابة على الطالبيين أجمعين من كان في مدينة السلام وفي غيرها من النواحي والأمصار ثقة بانك تقع من النهوض بالاعباء بحيث تحقق ظن أمير المؤمنين فيك ، وتظهر من الكفاية والغناء ما يكون

لمزيدك من النعمة مقتضيا ، ولمضاعفة الاحسان اليك ممتريا . واعلم ان أن أمير المؤمنين قد فضلك على أهل بيتك طراً ، ورفعك فوقهم جماً ، فجعلك واحدهم بعد أن كنت واحداً منهم ، واختصك دونهم بعدمساواتك لهم ، فسر في تطبيقهم سيرتــــه ، واسلك في ترتيبهم طريقته ، وأوصهم بحسن التأمل لآثار الجماعة ، وكفهم عما تنكر بالهيبة والطاعة ، وإنما جعلك أمير المؤمنين أمينه فيهم ، وعينه عليهم ، لماضنّ بهم عن الزلل وصانهم عن الغيّ والخطل ، واستهد الله أولا وآخراً يهدك ، واستكفه باطناً وظاهراً يكفك ، واستمد منه العون يمددك ، واشكر نعمه يزدك » .

هذه فقرات تخيرناها من التقليد الذي كتبه الصابي إلى أبي احمد الموسوي عن الخليفة المطيع ، ومن هذه الفقرات ترون روح الحب الذي كان يكنه الصابي للموسوي والد الشريف

قد تقولون : هــــذا كلام أذيع باسم الخليفة فهو يصوّر عواطف الخليفة لا عواطف الصابي .

ونجيب بانه كان مفهوماً أن الكتاب يسالون عما يكتبون ، لأن الخلفاء والملوك والرؤساء لم يكونوا يملون الرسائل ، وإنما كانوا يوصون بشرح الغرض ، فكانت للكتاب فرص يعلنون بها ما يضمرون .

والتاريخ يحدثنا أن الخليفة المنصور حقد على ابن المقفع للأمان الذي كتبه لعبد الله بن علي ، فقد جاء فيه :

« ومتى غدر أمير المؤمنين بعمه عبد الله فنساؤه طوالق ، ودوابه حبس ، وعبيده أحرار ، والمسلمون في حل من بيعته » .

وكان يستطيع المنصور أن يفترض ان ابن المقفع لم يكتب غير ما أملى عليه ، ولكنه كان يعرف أن الكتاب يتصرفون فيما يعهد اليهم

من ضروب الانشاء ، وكان جزاء ابن المقفع أن يقتل ويحرق ويذري رماده في الهواء .

والصابي نفسه أخذت عليه عبارة كتبها عن الخليفة الطائع في شان بختيار وهي :

« وقد جدد له أمير المؤمنين مع هذه المساعي السوابق ، والمعالي السوامق ، التي تلزم كل دان وقاص ، وعام وخاص ، أن يعرف له حق ما كرمَ به منها ، ويتزحزح عن رتبة المماثلة فيها » .

فقد غضب عضد الدولة من هذه الكلمة وعدّها تعريضاً به ، فلما أمكنته الفرصة نكل بالصابي أشنع تنكيل .

ونحن في هذه الأيام نسمع الرد على خطاب العرش ، فهل تظنون أن النواب يجادلون جلالة الملك ؟ لا ، وإنما هم يجادلون رئيس الوزراء ، لأن المفهوم في عرف الحياة الدستورية أن خطاب العرش من وضع رئيس الوزراء ، أو هو خطاب اشترك في تدوين أصوله جميع الوزراء .

كذلك كان يسأل الكتاب الذين ينشئون الرسائل بأسماء الخلفاء والملوك .

وإنما سقنا هذه الشواهد لنؤكد أن الثناء على أبي أحمد الموسوي في الخطاب الذي كتبه الصابي باسم الخليفة المطيع يدل على المودة المتينة التي كانت بين ذينك الرجلين ، وهي مودة سمع بأخبارها الشريف وهو طفل ، ثم جاءت الحوادث فزادتها توكيداً إلى توكيد .

ولكن ما هي تلك الحوادث ؟

حدثناكم من قبل عن الخصومة بين بختيار وعضد الدولة وقلنا إنها انتهت باندحار بختيار وسيطرة عضد الدولة على العراق .

فلنذكر ان عضد الدولة حين انتصر أخذ يصفي حسابه مع خصومه القدماء ، فنظر فرأى الصابي ، وكان شيخاً له بين الكتاب مكان مرموق ، ففكر في أمره غير قليل ، ثم هداه الرأي إلى استخدام الصابي في تاليف كتاب يسجل به مفاخر الدولة الديلمية ويشرح ما قامت به من الحروب والفتوحات ، ورآها الصابي فرصة يستلين بها عضد الدولة وينجي بها رأسه من السيف ، وأخذ في التاليف ، ولكن بعض الأصدقاء دخل عليه وهو مشغول بالتسويد والتبييض فساله عما يعمل فاجاب وقد خانه الحظ أباطيل أنمقها ، وأكاذيب ألفقها !

ومضى ذلك الصديق الخؤون فنقل العبارة إلى عضد الدولة ، فثارت أحقاد ذلك الطاغية وأمر بان يلقي الصابي تحت أرجل الفيلة ليقتل أشنع قتل ، ولكن لطف الله بالصابي شيخ الكتاب ، فقد كان في حضرة عضد الدولة جماعة يرون له الاستاذية عليهم ، منهم نصر بن هرون والمطهر بن عبد الله وعبد العزيز بن يوسف ، فاكبوا على الارض يقبلونها بين يدي عضد الدولة ويستشفعون اليه في أمره ويتلطفون في استيهاب دمه ، إلى أن أمر باستحيائه مع القبض عليه واستئصال ما يملك من عقار وأموال [1] .

وهنا تذكرون أن عضد الدولة الذي نكب الصابي هو نفسه عضد الدولة الذي اودع ابا احمد الموسوي غياهب الاعتقال .

فان ذكرتم ذلك فهمتم ولا ريب أن الاشتراك في مصدر النكبة

---

(١) راجع يتيمة الدهر ج٢ ص ٢٧ .

سيدخل ألواناً جديدة في نفس الطفل الذي اسمه الشريف الرضي، وفهمتم أن ذلك الطفل سيجعل نكبة الصابي باباً من التلوم عـــلى عضد الدولة الذي يضطهد أقطاب الرجال .

اعتقل الصابي سنة ٣٦٧ ولكن عضد الدولة سيموت، وسيتولى ابنه صمصام الدولة ويفرج عن الصابي في سنة ٣٧١ فليكن هذا التاريخ هو بداية الصلة الوثيقة بين ابي اسحاق الصابي والشريف الرضي، ولنعط الشعر فرصة يصور فيها ذلك الوداد .

...

أيها السادة

كان الصابي كما تعلمون من اعلام الكتاب ، وقد بسطت القول عنه من هذه الناحية في الجزء الثاني من كتاب النثر الفني ، وكان مع ذلك من أفراد الشعراء ، وهو الذي يقول :

إلى الله اشكو ما لقيت من الهوى
بجارية أمسى بهـــا القلب يلهج
إذا امترجت أنفاسنا بالتزامنا توهمت ان الروح بالروح تمزج
كأني وقد قبلتها بعد هجعة ووجدي ما بين الجوانح يلعج [1]
أضفت إلى النفس التي بين اضلعي
بأنفاسها نفساً إلى الصدر تولج
فان قيل لي اختر أيما شئت منهما
فاني إلى النفس الجديدة أحوج

---

(١) يلعج : يتوقد ، ومنه لاعج الحب ولواعج الشوق .

فيمكن القول بان المودة بينه وبين الشريف نشأت من التوافق في المذاهب الادبية، وذلك من أمتن الاسباب في الجمع بين قلوب الرجال، ولكن يظهر ان التوافق الادبي لم يكن كل شيء، فقد كان الرجلان من جيلين مختلفين، والالفة الذوقية توجب تقارب السن في أغلب الاحوال، وكان هذان الرجلان متباعدين في السن حين جمع بينهما الصفاء، فقد كان الشريف في مطلع العقد الثاني من عمره، وكان الصابي في أواخر العقد الثامن، وشعر الصابي نفسه يشهد بانه كان يعظم الشريف قبل أوان التعظيم، اي انه كان يراه طفلا لولا الفراسة التي توحي بان سيكون هذا الطفل من عظماء الرجال، إذ يقول:

ابا حسن لي في الرجال فراسة   تعودت منها أن تقول فتصدقا

وقد خبرتني عنك انك ماجد   سترقى من العلياء ابعد مرتقى

فوفيتك التعظيم قبل اوانه   وقلت اطال الله للسيد البقا

وأضمرت منه لفظة لم ابح بها   إلى ان ارى اطلاقها لي مطلقا

فان عشت او ان مت فاذكر بشارتي

واوجب بهـــا حقاً عليك محققا

وكن لي في الاولاد والأهل حافظاً

اذا ما اطمأن الجنب في موضع النقا

وهذه الأبيات تعطينا مفتاح السر لتلك العلائق، فما هي البشارة التي يسجلها الصابي ليستقضي «حلاوتها» في مستقبل الزمان ؟

لننتظر قليلا حتى نسمع جواب الشريف:

سننت لهذا الرمح غرباً مذلقا [١]
وأجريت في ذا الهندواني رونقا
وسوّمت ذا الطرف الجواد وانما
شرعت له .بجاً فخبّ وأعنقا [٢]

لئن برقت مني مخايل عارض لعينيك تقضي ان يجود ويغدقا [٣]
فليس بساق قبل ربعك مربعا وليس براق قبل جودك مرتقى
وان صدّقت منه الليالي مخيلة تكن بجديد الماء أول من سقى

ويغدو لمن يروى جنـــابك مروياً
زلالا وللاعداء دونك مصقما

وان تر ليثاً لاثذاً لفريسة يراصد غرات المقادير مطرقا
فما ذاك الا ان يوفر طعمها عليك اذا جلى عليك وحققا
وان يرق يوماً في المعالي فانه سما ليوقي وطء رجلك مزلقا

وان يسع في الامر العظيم فانما
سعى لك في ذاك الطريق مطرّقا [٤]
وان يصب السهم الذي راش نصله
فما كان الا في هواك مفوّقا [٥]
وان ينهض الغرس الذي هو غارس
يكن لك مجنى في الخطوب ومعلقا

---

(١) الغرب : الحد ، والمذلق المحدد .
(٢) الطرف بالكسر الحصان ، والخبب والعنق من انواع السير السريع
(٣) العارض : السحاب . (٤) المطرق : ممهد الطريق .
(٥) مفوق : مسدد .

لتجنيه دون الناس ما كان مثمرا
وتلبس ظلا منه ما كان مورقا
فنم وادعاً واستسقني فستنتضي حساماً إذا ما مر بالعظم طبقا
إلى أن يقول :
فإن راشني دهري أكن لك بازيا
يسرك محصوراً ويرضيك مطلقا
أشاطرك العز الذي أستفيده بصفقة راض أن غنيت وأملقا
فتذهب بالشطر الذي كله غنى وأذهب بالشطر الذي كله شقا
وتأخذ منه ما أنام وما حلا وآخذ منه ما أمر وأرقا
فغيري إما طار غادر صحبه دوين المعالي واقعين وحلقا
فان تسلف التبجيل قبل أوانه
أعضك به وجهاً من الود مونقا
وإن تعطني الاعظام قولا فانني
ساعطيك فعلا منه أذكى وأعبقا (١)

ومن هنا نفهم أيها السادة سر العلائق بين ذينك الرجلين ، نفهم أن الصابي كان يزين للشريف أن يطلب الخلافة الاسلامية ، وهذا التزيين هو وحده كاف لأن يجعل الصابي أعز الناس على الشريف ، فقد كان الشريف في بداية شبابه ، والشبان يحبون من يثق بكفايتهم الذاتية ويرشحهم لجلائل الأعمال .

وهذه أيها السادة ظاهرة نفسية يدركها من يدرس نفوس الشبان

---

(١) في هذه القصيدة كثير من القعقعة ، ولكن عذر الشريف أنه قالها في بداية حياته الشعرية .

فهم يحبون أن يصلوا إلى قمم المجد في يوم وليلة ، ويبحثون عمن يزكيهم ويؤيدهم ويدعي لهم التفوق ، وقد تلفت الشريف وهو طفل فرأى شيخاً جليلا يتنبأ له بمستقبل جليل ، فاحبه كل الحب ، ومال اليه كل الميل .

والقصيدة التي سقناها من شعر الشريف تشهد بانه انخدع كل الانخداع فاخذ يتصور الايام التي يقسم فيها الحظوظ والأرزاق ويؤكد للصابي أنه سيجعله في مأمن من خطوب الزمان .

وقد ثارت الحمية في ذلك الغصن الأملود ، واستكثر أن تعوقه غضاضة السن عما يريد ، فاندفع يقول :

فان قعدت بي السن يوماً فانه　　سينهض بي مجدي اليها محققا
فوالله لا كذبت ظنك انه　　لعار إذا ما عاد ظنك مخفقا
فان الذي ظن الظنون صوادقا　　نظير الذي قوى الظنون وحققا

على أن الشريف لم يكن بالغافل إذ صدق فراسة الصابي ، فهما أديبان، والادباء قد يطمئن بعضهم إلى بعض ، وكان الشريف يعرف أن الصابي له علاقات متينة بكثير من الرؤساء والوزراء ، ولا سيما الصاحب ابن عباد وكان مفهوماً في تلك العهود أن الخلافة العباسية على شفا الهاوية ، وأن الامر لملوك بني بويه ، والاتفاق مع أولئك الملوك ليس بالأمر المستحيل .

وكذلك تطور الحب بين الشريف وبين الصابي ، فبعد أن كان الشريف يميل إلى الصابي لانه من أصدقاء أبيه القدماء ، ولأنه من خصوم عضد الدولة ، ولأنه يعجب بشعره وهو طفل ، أصبح يحبه صار من دعاته الاوفياء ، ولأنه سيصير في المستقبل من صنائعه يوم يصبح

أمير المؤمنين .

تلكم أيهـــا السادة أسرار العلائق بين ذينك الرجلين ، ولكنها إلى الآن علائق نفعية ، فلننظر كيف تطورت مرة خامسة فاصبحت مودة وثيقة تساور لفائف القلوب .

أيها السادة

لا تسالوا عن الصابي الذي كان يشجع الشريف على مطامعه السياسية ، فتلك شؤون كان الرجلان يروضانها في الخفاء ، وقد مرت أعوام وأعوام وبغداد بين مد وجزر ، وأرض العراق معسكرات يتداولها المحاربون بين يوم ويوم ، فكان لا بد من التربص لتحقيق ذلك الامل الخطير ، وهو لن يحقق برسالة يكتبها الصابي أو قصيدة ينظمها الشريف ، وإنما يحقق يوم تتم السيطرة لرجل واحد من البويهيين يسهل معه الاتفاق ، ولكن متى ياتي ذلك اليوم ؟

إن انتظاره سيطول !

وفي انتظار اليوم الموعود يمضي الصديقان فيتساقيان كاس الوداد ، والظاهر أن نفس الشريف كان طال عهدها بالنفرة من الناس ، فما كاد يعرف الصابي حتى أقبل على محبته بقلب ملهوف .

ويظهر أيضاً أن نفس الصابي كانت ملت الاتصال برجال السياسة الذين أزعجوا شبابه وكهولته بالتلون والتقلب ، فما كاد يتصل بالشريف حتى رأى فيه نفساً روحانية قد تستطيع تجديد نوره وهو يجنح راغما إلى الغروب .

وهنا نذكر أن شيخوخة الصابي اعتمدت على دعامتين مـــن أكرم دعائم العطف ، الدعامة الاولى هي مودة الصاحب ابن عبـــاد ، الرجل

النبيل الذي ظلمناه بعض الظلم في كتاب النثر الفني ، فقد كان ابن عباد يتلطف في بر الصابي فيرسل اليه الهدايا المستورة مع الحجاج ، والدعامة الثانية مودة الشريف الرضي ، الفتى الفقير الذي يملك من صفاء الروح ما يؤنس الصابي فيرده إلى مرح الشباب .

ولكن حظ الصديقين كان يختلف أشد الاختلاف ، فكل شمس تطلع تمد الشريف بقبس من الفتوة ، وكل شمس تغرب تذكر الصابي بما ينتظر من الافول .

وسياق الحوادث يشهد بأن ذلك الشيخ الذاوي هو الذي كان يجب عليه أن يتكلف المشقة ليزور ذلك الفتى الفينان ، وقد تكلف ذلك الشيخ ما تكلف إلى أن أعجزه المرض عن عبور دجلة فكتب إلى صديقه الفتي يقول :

أقعدتنا زمانة وزمان [1] جائر عن قضاء حق الشريف
ولئن تقلا عن الخدمة الخط و لعن خاطر اليها خفيف
فاقتصرنا فيما نؤدي من الفر
ض [2] على الكتب والرسول الحصيف
والفتى ذو الشباب يبسط في التق صير عذر الشيخ العليل الضعيف

وقد أجاب الشريف على هذه الابيات بقصيدة طويلة ابتدأها بجيد النسيب إذ يقول :

كم ذميل اليكم ووجيف [3] وصدود عنا لكم وصدوف
وغرام بكم لو ان غراماً جرّ نفعاً للواجد المشغوف

---

(١) الزمانة المرض المزمن (٢) في الديوان « العرض » بالعين المهملة وهو تحريف (٣) الذميل والوجيف من ضروب السير .

فلما وصل إلى خطاب الصابي تلطف فاشار إلى أنه نصيره على الزمان ، وشبه وجهه بالدينار وكلامه بالنصول . ثم قال :

إن شكواك للزمان مبين لي عن[1] قدر عقله المضعوف
قدمت غيرك الجدود وأخر ت ولكن أناف غير منيف[2]
قصف الدهر فيك رمحاً من الكيـ
ـد وحامى عن المعيب المؤوف[3]
ان حرمت الرزق الذي نال منه
فدواء العيّ داء الحصيف
عمل فاضح واجمل من بعـ ـض الولايات عطلة المصروف
فاصطبر للخطوب رب اصطبار شق فجراً من ليلهن المخوف
كم تحملتها بظهر من الصبـ ـر فخفت والعبء غير خفيف
لم تغب عن سواد عيني وإن غبـ ـت معنى نوائب و صروف
قرَّ عيناً بطارقات الشكايا ما تجافت مطرقات الحتوف

ومن هذه الابيات نفهم ان الصابي كان يشكو علتين : علة الشيخوخة وعلة الفقر الديقوع .

ثم اشتدت العلة بالصابي فكان لا ينتقل من مكان إلى مكان إلا وهو محمول ، فكتب إلى رفيقه الفتى :

إذا ما تعدت بي وسارت محفة[4]
لها ارجل يسعى بها رجلان

---

(١) في الديوان « على » (٢) اناف : رفع (٣) المؤوف : الذي لحقته آفة
(٤) المحفة بالكسر مركب كالهودج الا انها لا تقبب .

وما كنت من فرسانها غير انها   وفت لي لما خانت القدمان
نزلت اليها عن سراة حصان   بحكم مشيبي او فراش حصان[1]
فقد حملت مني ابن تسعين سالكاً
سبيلا عليها يسلك الثقلان
كما حمل المهد الصبيّ وقبلها   ذعرت ليوث الغيل بالنزوان
ولي بعدها اخرى تسمى جنازة   جنيبة يوم للمنية داني
تسير على اقدام اربعة الى   ديار البلى معدودهن ثمان
وإني على عيث[2] الردى في جوانبي
وما كف من خطوي وبطش بناني
لأعلم اني ميت عاق دفنه   ذماء قليل في غد هو فان[3]
وان فما للأرض غرثان حائماً[4]
يراصد من اكلى حضور أوان
به شره عمّ الورى بفجائع   تركن فلاناً ثاكلا لفلان

وهي قصيدة مزعجة يضيق المقام عن سرد ما تشير اليه من الفجائع الانسانية ، والمهم ان نشير الى ان الصابي كشف في هذه القصيدة عن نفسه فرأيناه يرى الشريف الرضي هو الذخيرة التي يتركها لأبنائه يوم يموت ، وهذا اجمل ما يمدح به صديقنا الشريف طيب الله ثراه.

وقد انزعج الرضي لهذه القصيدة الباكية ، وأجابه بقصيدة طويلة نختار منها هذه الابيات الحسان :

---

(١) الحصان بالكسر الجواد ، وبالفتح المرأة العفيفة ، والسراة الظهر
(٢) في اليتيمة « غيث » بالغين المعجمة وهو تحريف
(٣) الذماء بالفتح بقية النفس   (٤) غرثان : جائع .

وما زل منك الرأي والحزم والحجا
فناسى إذا ما زلت القدمان
ولو أن لي يوماً على الدهر إمرة
وكانت لي العدوى على الحدثان
خلعت على عطفيك برد شبيبتي جواداً بعمري واقتبال زماني
وحملت ثقل الشيب عنك مفارقي
وإن فل من غربي وغض عناني
ونابت طويلا عنك في كل عارض
بخط وخطو اخمصي وبناني
على انه ما انفل من كان دونه حميم يرامي عن يد ولسان
وانك ما استرعيت مني سوى فتى
ضموم على رعي الأمانة حان
حفيظ إذا ما ضيع المرء قومه وفيّ إذا ما خوّن العضدان
من الله أستهدي بقاءك أن ترى
محلا لأسباب العلا بمكان
وأسأله ان لا تزال مخـــلداً بملقى سماع بيننا وعيان
اذا مارعاك الله يوماً فقد قضى مآرب قلبي كلها ورعاني

ثم لزم الصابي منزله وهو راغم بحكم الضعف والوهن ، فكان آخر ما قال من الشعر قصيدة أرسلها إلى الشريف قبل ان يموت باثني عشر يوماً ، وهي قصيدة طويلة نكتفي منها بالأبيات الآتية :

أقيك الردى ليس القلى عنك مقعدي
ولكن دهاني بالزمانـــة ذا الزمن

وغادرني خلف المضاجع راهناً
على خلة في الحال والنفس والبدن
فان تنأ منك الدار فالذكر ما نأى
وإن بان مني الشخص فالفكر لم يبن
وإن طال عهد الالتقاء فدونه عهود عليها من رعايتنا جنن[1]

وقد أجاب الشريف بقصيدة أطول وأمتع ، نكتفي منها بالقطعة الآتية :

من مبلغ لي أبا اسحاق مالكة عن حنو قلب سليم السر والعلن[2]
جرى الوداد له مني وإن بعدت
منا العلائق مجرى الماء في الغصن
لقد توامق قلبانا كأنهما تراضعا بدم الأحشاء لا اللبن
مسود قصب الأقلام نال بها نيل المحمر أطراف القنا اللدن
إن لم تكن تورد الأرماح موردها
فما عدلت إلى الأقلام عن جبن
والطاعن الطعنة النجلاء عن جلد
كالقائل القولة الغراء عن لسن[3]
حار المجارون إذ جاروك في طلق
وأجفلوا عن طريق السابق الارن[4]

«١» جمع جنة بالضم وهي الوقاية
«٢» الحنو بالكسر والفتح كل ما فيه اعوجاج من البدن كمعظم الحجاج والضلع
«٣» يريد ان المجاهد بالقلم واللسان كالمجاهد بالرمح والسيف .
«٤» الارن الجموح

ضلوا وراءك حتى قال قائلهم
ماذا الضلال وذا يجري على السنن
ما قدر فضلك ما أصبحت ترزقه
ليس الحظوظ على الأقدار والمهن
قد كنت قبلك من دهري على حنق
فزاد ما بك من غيظي على الزمن
كم راشنا وبرانا غير مكترث بما نعالج بري القدح بالسفن[1]
إن يدن قوم إلى داري فالقهم وتنأ عني فأنت الروح في البدن

فالمرء يسرح في الآفاق مضطرباً
ونفسه أبداً تهفو إلى وطن
والبعد عنك بلاني باستكانهم[2]
إن الغريب لمضطر إلى السكن
أنت الكرى مؤنساً طرفي وبعضهم
مثل القذى مانع عيني من الوسن[3]
كم من قريب يرى أني كلفت به
يمسي شجاي وتضحى دونه شجني
أشتاقكم ودواعي الشوق تنهضني
اليكم وعوادي الدهر تقعدني
وأعرض الود أحياناً فيؤنسني وأذكر البعد أطواراً فيوحشني

---

(١) القدح بالكسر السهم قبل ان يراش وينصل ، والسفن بالتحريك كل ما ينحت به الشيء (٢) الاستكان افتعال من السكن (٣) الوسن : النوم

هذا ودجلة ما بيني وبينكم
وجانب العبر غير الجانب الخشن[1]

وكانت هذه القصيدة آخر ما مر بسمع الصابي من الطيبات ، فقدمات بعد قراءتها بأيام .

وقد رأيتم أن هذين الصديقين كانا يتقارضان الشكاية ، فإن تجمل الصابي شكا عنه الشريف ، وإن شكا الصابي واساه الشريف ، وما ندري كيف استطاع الشريف أن يسكت على قول الصابي في وصف الزمان .

وغادرني بخلف المضاجع راهناً على خلة في الحال والنفس والبدن

ولكني أرجوكم أن تتذكروا أن الرضي كان فقيراً وأن أملاك أبيه ظلت محجوبة عنه إلى ذلك الحين .

لم يبق أيها السادة إلا أن نحدثكم عما صنع الشريف بعد موت الصابي ، وكل أديب يعرف ان الشريف رثى الصابي بقصيدة جيدة بلغت اثنين وثمانين بيتاً ، وكل الذين ترجموا للصابي أو الرضي تحدثوا عن تلك المرثية الهائلة ، وكان وجه الغرابة أن يبكي شاعر من عترة الرسول رجلا من الصابئين ، وقد فصلت ذلك في كتاب النثر الفني فلا أعود اليه الآن ، ولكن الذي يجهله أكثر الادباء أن الشريف لم يرث الصابي مرة واحدة فقد ظل يتفجع عليه إلى آخر حياته ، ورثاه بعد أن طال العهد بموته بقصيدتين هما آيتان من آيات الوفاء .

وأعيذكم أن تجهلوا هــذا الجانب من نفس الشريف ، فالشعراء في الأغلب يرثون أصدقاءهم يوم الموت ، ثم يتناسونهم فينسونهم بعد حين ،

---

(١) العبر بالكسر وبفتح الشاطىء

والوفاء في الدنيا قليل .

وتذكروا أن الصابي لم تكن له عصبية حتى نتهم الشريف بأنه يبحث عن أنصار وأشياع ، هيهات ، فقد كان الصابئون أقلية لا يحسب لها حساب وكان محرماً عليهم أن يتساموا إلى مراتب الوزراء .

ونحن في الواقع نثق ثقة مطلقة بأمانة الشريف، ولكن البحث النفسي يوجب أن نعرض هذا الجانب ، والمؤرخون لذلك العهد نظروا إلى مرثية الشريف نظرة استغراب ، وهذا يؤكد أن الشريف لم يرع في مرثيته غير معاني الوداد

ويزيد في قيمة تلك المرثية أن الصابي لم يمت إلا وهو في فقر مدقع ، ولم ير الموت إلا بعد أن تقطعت عنه أسباب المجد ، وأقبلت الدنيا على خصومه الألداء .

فالشريف في رثاء الصابي رجل مفرد بين الرجال ، وموقفه أقوى من موقف البحتري في رثاء المتوكل ، لأن البحتري شهد فاجعة أليمة تنطق الجماد ، أما الصابي فيرثي صديقاً عديم الحول ، وقد بلغ أرذل العمر ولم يمت إلا في الحادية والتسعين وهو على دين « منبوذ » تنكره الدولة وينكره الناس .

قد تقولون : ان الشريف لم يكن يملك غير ذلك وقد عرف الناس ما بينه وبين الصابي .

ونعترف بأن هذا النوع من الوفاء هو لون من الاثرة الذاتية، ولكن هذه الأثرة في ذاتها جوهر نبيل ، وشرف البواعث مما تنصب له الموازين .

وكيف يتهم في صدقه من يقول :

أرأيت من حملوا على الأعواد أرأيت كيف خبا ضياء النادي

جبل هوى لو خرّ في البحر اغتدى
من وقعه متتابع الازباد

ما كنت أعلم قبل حطك في الثرى
أن الثرى يعـــلو على الاطواد

بعداً ليومك في الزمان فانه أقذى العيون وفتّ في الاعضاد

لا ينفد الدمع الذي يبكي به ان القلوب له من الأمداد

كيف انمحى ذاك الجناب وعطلت
تلك الفجاج وضلّ ذاك الهادي

طاحت بتلك المكرمات طوائح
وعدت على ذاك الجواد عوادي[1]

قالوا أطاع وقيد في شطن الردى[2]
أيدي المنون ملكت أي قيـــاد

من مصعب لو لم يقده إلهه[3] بقضائه مـــا كان بالمنقاد

. . . .

أعزز عليّ بان يفارق ناظري لمعان ذاك الكوكب الوقاد

أعزز عليّ بان أراك بمنزل متشابه الأمجاد والأوغاد

. . . .

عمري لقد أغمدت منك مهنداً
في الترب كان ممزق الأغماد

«١» في الديوان (اعادي) وما أثبتناه أنسب

«٢» الشطن بالتحريك الحبل الطويل «٣» المصعب : الفحل

قد كنت أهوى أن اشاطرك الردى
لكن أراد الله غير مرادي
ولقد كبا طرف الرقاد بناظري
أسفاً عليك فلا لعاً لرقاد(١)
ثكلتك أرض لم تلد لك ثانياً أني ومثلك معوز الميلاد
ان الدموع عليك غير بخيلة والقلب بالسلوان غير جواد
سودت مابين الفضاء وناظري وغسلت من عيني كل سواد
ري الخدود من المدامع شاهد أن القلوب من الغليل صواد
ما كنت أخشى أن تضن بلفظة
لتقوم بعدك لي مقام الزاد
ماذا الذي منع الفنيق هديره(٢)
من بعد صولته على الأذواد(٣)
ماذا الذي حبس الجواد عن المدى
من بعد سبقته إلى الآماد
ماذا الذي فجع الهمام بوثبة وعدا على دمه وكان العادي
لقضى لسانك مذ ذوت ثمَراتة أن لا دوام لنضرة الأعواد(٤)
بقيت أعيجاز يضل تبيعها ومضت هواد للرجال هواد(٥)

(١) لا لعاً له : عبارة قديمة تفيد الذم .
(٢) الفنيق : الفحل المكرم لا يؤذي لكرامته على أهله ولا يركب
(٣) جمع ذود وهي جماعة الابل . وهي كلمة تكثر في أشعار الشريف لكثرة ما يصطنع من الاخيلة البدوية (٤) اللام في كلمة « لقضى » مفتوحة وهي لتوكيد المعنى . (٥) أعيجاز مصغر أعجاز ، وجمع القلة يصغر على لفظه ، والتبيع : التابع ، والهوادي جمع الهادي وهو العنق ، وفي البيت جناس .

يا ليت أني ما اقتنيتك صاحباً   كم قنية جلبت أسى لفؤادي
برد القلوب لمن تحب بقاءه   مما يجر حرارة الاكباد
ويقول من لم يدر كنهك انهم   نقصوا به عدداً من الاعداد
هيهات أدرج بين برديك الردى   رجل الرجال وأوحد الآحاد
لا تطلبي يا نفس خلا بعده   فلمثله أعيا على المرتاد [1]
فقدت ملاءمة الشكوك بفقده   وبقيت بين تباين الاضداد
ما مطعم الدنيا بحلو بعده   أبداً ولا ماء الحيا ببراد [2]
الفضل ناسب بيننا إن لم يكن   شرفي مناسبه ولا ميلادي [3]

إن لم تكن من اسرتي وعشيرتي
فلأنت أعقلهم يداً بودادي

إن لم يكن وافي الاصول فقد وفى
شرف الجدود بسؤدد الأجداد [4]

لا در دري إن مطلتك ذمة   في باطن متغيب أو باد
ان الوفاء كما اقترحت فلو تكن
حياً إذن ما كنت بالمزداد
ليس التنافث بيننا بمعاود   أبداً وليس زماننا بمعاد [5]

---

(١) اللام في كلمة « فلمثله » تنطق بالفتح وهي أيضاً لتوكيد المعنى .

(٢) الحيا المطر ، والبراد : البارد   (٣) هذا المعنى ورد في أشعار كثيرة قبل الرضي ، وقد حللناه في كتاب النثر الفني ج ٢ ص ١٧ و ١٨ .

(٤) الجدود : الحظوظ المكسوبة ، يريد انه عصامي بنى مجده بيديه .

(٥) التنافث : التناجي .

ضاقت علـيَّ الأرض بعدك كلها
وتركت أضيقها عليَّ بلادي
لك في الحشا قبر وان لم تأوه ومن الدموع روائح وغواد
سلوا من الأبراد جسمك وانثنى
جسمي يسلُّ عليك في الأبراد
فاذهب كما ذهب الربيع وأثره باق بكل خمائل ونجاد
لا تبعدنَّ وأين قربك بعدها ان المنايا غاية الأبعاد
صفح الثرى عن حر وجهك انه
مغرى بطيِّ محاسن الامجاد
وتماسكت تلك البنان فطالما عبث البلى بأنامل الاجواد
وسقاك فضلك انه أروى حيا من رائح متعرس أو غاد(١)
جدث على أن لا نبات بارضه وقفت عليه مطالب الرواد

وقد اجتاز الشريف على قبر الصابي بعد موته بأعوام فهاجته الذكرى فقال :

أيعلم قبر بالجنينة أننا أقمنا به ننعى الندى والمعاليا(٢)
مررنا به فاستشرفتنا رسومه
كما استشرف الروض الظباء الجوازيا
وما لاح ذاك الترب حتى تحلبت
من الدمع أوشال ملأن الاماقيا(٣)

---

(١) المتعرس الذي ينزل بالليل (٢) الجنينة مقبرة كانت في بغداد .
(٣) الاوشال جمع وشل بالتحريك وهو الماء القليل يتحلب من جبل او صخرة

نزلنا اليه عـــن ظهور جيادنا
نكفكف بالأيدي الدموع الجواريا
ولمـــا تجاهشنا البكاء ولم نطق
عن الوجد إقلاعاً عذرنا البواكيا
أقول لركب رائحين تعرّجوا
اريكم به فرعاً مـن المجد ذاويا
ألموا عليه عاقرين فانـــنا إذا لم نجد عقراً عقرنا القوافيا
ولو أنصفوا شقوا عليه ضمائراً وجزوا رقاباً بالظبا لانواصيا
وقفنا فارخصنا الدموع وربما تكون على سوم الغرام غواليا
ألا أيها القبر الذي ضم لحده قضيباً على هام النوائب ماضيا[1]
هل ابن هلال منذ أودى كعهدنا
هلالا على ضوء المطالع باقيا
وتلك البنان المورقات من الندى
نواضب مـــاء أم بواق كما هيا
وما كنت آبى طول لبث بقبره
لو اني اذا استعديته كان عاديا[2]

. . . .

خلا بعدك الوادي الذي كنت أنسه
وأصبح تعروه النوائب واديا
أراحت علينا ثلة الوجد ترتعي ضمائرنا أيامها والليا ليا[3]

---

(١) القضيب هنا السيف (٢) استعديته : استنصرته
(٣) الثلة بالضم الجماعه الكثيرة من الغنم ، وفي البيت تخييل

رضيت بحكم الدهر فيك ضرورة
ومن ذا الذي يغدو بما ساء راضيا
وطاوعت من رام انتزاعك من يدي
ولو أجد الاعوان أصبحت عاصيا
وطامنت كيما يعبر الخطب جانبي
فالقى على ظهري وجرّ زماميا
رثيتك كي أسلوك فازددت لوعة
لأن المراثي لا تسد المرازيا
وأعلم أن ليس البكاء بنافع عليك ولكني أمني الامانيا

وفي سنة ٣٩٣ أي بعد موت الصابي بنحو تسع سنين مر الشريف على قبره فقال :

لولا يذم الركب عندك موقفي حييت قبرك يا أبا اسحاق
كيف اشتياقك مذ نايت إلى أخ
قلق الضمير اليك بالاشواق
هل تذكر الزمن الانيق وعيشنا يحلو على متأمل ومذاق
وليالي الصبوات وهي قصائر خطف الوميض بعارض مبراق
لا بدّ للقرناء[1] أن يتزايلوا يوماً بغدر قلي وعذر فراق
أمضي وتعطفني اليك نوازع بتنفس كتنفس العشاق
وأذود عن عيني الدموع ولو خلت
لجرت عليك بوابل غيداق[2]

(١) في الديوان « القرباء » بالباء وهو تحريف
(٢) غيداق : كثير الانسكاب

ولو أن في طرفي قذاة من ثرى
وأراك ما قذيتها من ماقي[1]
ان تمض فالجد المرجب خالد[2] أو تفن فالكلم العظام بواقي
إلى آخر القصيدة

وكنت أشرت في كتاب النثر الفني إلى أن رسائل الصابي لا تصلح لغير أهل عصره فهي غير خليقة بالبقاء . وفاتني أن أقول ان الشريف كتب اسم الصابي على جبهة الزمان باصباغ لا تجففها شمس ولا يمحوها هواء.

(١) هذا بيت نفيس ، ومعناه ان القذى لو دخل عينه وكان تراباً من قبر الصابي لما رضي ان يخرج ذلك القذى من عينة (٢) المرجب : المعظم

غرائب الوفاء

عند الشريف الرضي

ايها السادة

أشرنا قبلا إلى رجل من أصدقاء الشريف يقال له ابن ليلى ، وهو رجل لم تتحدث عنه كتب التاريخ ، وانما نعرف ان اسمه عمرو ، لقول الشريف وهو يرثيه :

وأين كفارس الفرسان عمرو   إذا رزءمن الحدثان فاجـــا

ونعرف أن كنيته أبو العوّام من قول الشريف :

أين أبو العـــوّام للعواصي   يروضها والخيل والدلاص [1]

والمفهوم ان ابن ليلى كان رجلا عربياً من سادة البوادي ، والمظنون انه كان داعيةللشريف ، وتشهد أشعار الرضي أن بني تميم هم الذين قتلوا ذلك الصديق .

تلك هي ترجمة ابن ليلى ، فهل كان يستحق أن يبكيه الشريف بأربع قصائد ، وأن يجعله في قصيدة خامسة مثلا أعلى لأشراف الرجال .

ان ابن ليلى رجل صغير القدر عند من تستهويهم عنعنات التواريخ فلو كان لهذا الرجل شان لأفاض في أخباره المؤرخون ، ولكنا نرى أن ابن ليلى رجلا عظيما جداً ، لانه ذكر بالحمد والثناء في أثر أعظم من كتب

---

(١) دلاص على وزن كتاب درع ملساء

التواريخ وهو ديوان الشريف .

والحق ان شخصية ابن ليلى تعطينا صورة من صور الرضي ، أو هي تدلنا على بعض مذاهبه في الحياة ، ومن الواجب أن ننص بصراحة على صفة أساسية من صفات الشريف هي الفروسية ، فقد كان الشريف الرضي فارساً ، وكان أبوه فارساً ، وكان أقطاب أسرته من الفرسان ، وأبطال الفروسية لهم شمائل تقترب من شمائل الأعراب ، فليس من المستغرب أن يكون للشريف صديق بدوي يحبه أصدق الحب ويبكيه حين يموت بالقصائد الباقيات .

أضيفوا إلى هذا أن الشريف كان ورث عن أبيه صداقات كثيرة ، صداقات بدوية أسسها في غدوه ورواحه بين العراق والحجاز ، وكان الشريف وأبوه قد عرفا أقطاب البوادي وشياطين الصحراء وهما يحجان، وقد حجا مرات كثيرة بفضل المنصب الموروث ، منصب إمارة الحج ، ومن هنا جاز أن يقال ان ابن ليلى كان داعية الشريف ، فليس من المستبعد أن يكون الشريف فكر في تكوين عصبية عربية يناهض بها خلافة بني العباس حين تسمح الظروف ، وكان ابن ليلى من الذين اصطفاهم لتحقيق ذلك الغرض المرموق ، ولكن ستظل هذه القضية ظنوناً في ظنون إلى أن يظهر ما يحققها من شواهد التاريخ .

والمهم أن نقرر أن الشريف تفجع على ابن ليلى أعظم تفجع ، وشهدت أشعاره بانه كان يرى ذلك الرجل من كرام الاصفياء ، والواقع أن البوادي فيها كنوز من الشهامة والفتوّة والمروءة ، وهي عالم مجهول ولكنه موجود ، وكان من حظ الشريف أن يعرف ما في ذلك العالم من شمائل وخصال .

...

لا نعرف بالضبط متى مات ابن ليلى ، ولكن الارجح عندنا أن أقدم قصائد الشريف في رثائه هي القصيدة التي نظمها في مطلع سنة ٣٩٢ والظاهر ان ابن ليلى قتل في ذلك الحين ، فإن الشريف يقول :

تعيف (١) الطير فانبانـــه   أن ابن ليلى علقته علوق (٢)
وأن سجلا من دم آمن   أفرغه الطعن بوادي العتيق

وهي قصيدة بدوية النسج تشهد بان الشريف أراد أن يلائم بين سمات المبكي وبين سمات الاسلوب ، وفعها يقول :

بعداً لأرماح تميم لقـــد   هددن عاديّ بناء عتيق
قرعن في أصل كريم الثرى   وجلن في فرع عزيز العروق
حدوا له من حيث لا يتقي   عيرآمن الطعن ملاء الوسوق (٣)
ما كان بالراجع عن نهجه   لو وقف السيف له في المضيق

وفيها توجع الشريف أعنف توجع إذ يقول :

كان هوى للنفس لو أنـــني   في حلق القدو أنت الطليق (٤)
ما كنت بالهائب طرق الردى   ماسلم العضب وأنت الرفيق (٥)
ما أنا باللاقي بذات النقا   خيل وغى مشعلة بالعنيق (٦)
ماطلها الماء فلما سلتِ   عن الروى ماطلها بالعليق
ولّى ابن ليلي عارضاً رمحه   يحدو بخفان جمالا ونوق (٧)

---

(١) تعيف الطير وعافها : زجرهـــا ، وهو أن يعتبر بأسمائها ومساقطها وانوائها فيتسعد او يتشاءم   (٢) العلوق بفتح العين وضم اللام المنية
(٣) الوسوق جمع وسق وهو ستون صاعاً او حمل بعير   (٢) القدبالكسر القيد   (٥) العضب السيف   (٦) العنيق على وزن امير شدة الجري
(٧) خفان : اسم موضع .

يابى إذا الضيم غدا مضغة سلسالة سائغة في الحلوق

يروح من يرجو له غرة

قد خضخض السجل بجال عميق [١]

استبدل الحي بعقبانـــه [٢] اغربة بعدك حمق المنيق

خاطرت الشول باذنابها [٣] لماانطوى قرقار ذاك الفنيق [٤]

ما الحيُّ بالضاحك عن مثله ولاوجوه الحي مذغاب بروق [٥]

لا أغفلت قبرك حنانة [٦] خرقاء بالقطر صناع البروق

ولا أغب الارض تمسى بها ظل صفيق ونسيم رقيق

وهناك قصيدة أخرى سلكت هذا المسلك الوعر ، أرق ما فيـــها قوله :

ياقبر بين القور والدعاص [٧] ضمَّ على لؤلؤة الغواص

قاد ابن ليلى قائد المعتاص كان سياغي فغدا اغتصاصي

ما أثقل الياس على الحراص هل لجروح الدهر من قصاص

قد ينزل العالي مـــن الصياصي [٨]

وقد يطيع الرأس وهو عـــاصي

ولكن الشريف سيترك هذه الوعورة ويبكي ابن ليلى بالشعر السمح

---

(١) الجال : البئر (٢) جمع عقاب بالضم (٣) الشول بالفـــتح النوق تشول بذنبها للقاح (٤) القرقار : الهدير ، والفنيق : الفحل

(٥) روق بضم الراء حسان (٦) الحنانة السحابة الماطرة

(٧) القور بضم القاف جمع القارة وهي الجبيل المنقطع عن الجبال أوالصخرة العظيمة أو الأرض ذات الحجارة السود ، والدعاص جمع دعص بالكسر وهو قطعة من الرمل (٨) الصياصي جمع الصيصة بالكسر وهي الحصن .

كان يقول :

أداري المقلتين عن ابن ليلى ويابى دمعــها إلا لجاجا
لها ثبط عـــلى الأيام باق [1] تجيش به معيناً او أجاجا
كأن بها ركية [2] مستميح [3]
يخضخضها بكوراً وأدلاجا
أذود النفس عنه وذاك منها عنان ما ملكت له معاجا
كأن العين بعد اليوم جرح اذا طبوا له غلب العلاجا
تجم على القذى و تفيض دمعا مطال الداء وادع ثم هاجا
واين كفارس الفرسان عمرو اذا رزء من الحدثان فاجا
بحق كان أولهم ولوجاً على هول وآخرهم خراجا
إذا رسبت حصاة القلب منه طفا قلب الجبان به انزعاجا

وهو يحدثنا أن ذلك الرجل كانت اليه قيادة العرب إذ يقول :

فمن يزع العريب [4] إذا تنــاغت
ويضرب بين غاربها سياجا
ويذكرها الحلوم على تناس وقد بلغت حفائظها الهياجا
يحاججها [5] عن الارحام حتى يقر القوم أن له الحجاجا

ثم يختم القصيدة باقباس الالتياع فيقول :

أقاض حق قبرك ذو غرام اعاج الركب عن طربـ وعاجا

---

(١) الثبط هو من قولهم أثبطه المرض لم يكد يفارقه

(٢) الركية : البئر (٢) المستميح : الذي يستخرج الماء ، وفي الديوان « مستميت » (٣) العريب مصغر عرب (٥) يحاججها : يحاجها ، بفك الادغام وهو الاصل ، وهو يكثر في شعر الشريف .

يريق عليك ماء القلب صرفاً ... وماء العين يحمله مزاجا
ولو بلغ المنى إنسان عيني ... خلامنها وأسكنك الحجاجا[1]

وما زال الشريف يبدىء ويعيد في التفجع على ابن ليلى حتى ذهب الحزن به كل مذهب فخلد ذكره بقصيدة قليلة الامثال ، إذ يقول :

لعمر الطير يوم ثوى ابن ليلى ... لقد عكفت على لحم كريم
وإن قنا العــدا ليردن منه ... دمـــاً لم يجر في عرق لئيم
كان الرمح يصدر منه عدواً ... عن الاجمي ذي اللبد الكليم[2]
واقسم إن ثوبك يا ابن ليلى ... لمجموع على عرض سليم
رزئتك كالوذيـــلة لم تمتع ... بها بعد الوجود يد العديم[3]
تنام وتترك الاضغان يقظى ... خماشات الذوابل في تميم[4]
إذا نزعوا الملابس أذكرتهم ... ذحول يديه آثار الكلوم
ومن مطل الديون اعد صبراً ... على عنت المطالب والغريم
تداعت لي بمصرعه الليالي ... وأوعبت النوائب في أديمي
وتقترع القوارع في جناني ... قراع النبل في الغرض الرجيم[5]
أأجزع أن حطمن حجاز أنفي ... وهن يقصن أعناق القروم[6]
ومالي لا اراع وقد رمتني ... يد الجلى بقارعة التميمي
احنُّ اليه واللقيا ضمار[7] ... حنين العود للوطن القديم[8]

«١» الحجاج بالفتح وبكسر عظم ينبت عليه الحاجب «٢» الاجمي ساكن الاجم وهو الليث ، واللبد جمع لبدة وهو شعر كاهل الاسد ، والكليم الجريح .
«٣» الوذيلة على وزن سفينة المرآة والقطعة المجلوة من الفضة «٤» الخماشات جمع خماشة بالضم وهو ما ليس له ارش معلوم من الجراحات «٥» تقترع : تقتتل ، والغرض الرجيم الهدف المنصوب «٦» يقصن من الوقص وهو الكسر .
«٧» الضمار على وزن كتاب هو ما لا يرجى رجوعه من المـــال «٨» العود بفتح العين الجمل .

وانشده واعلم اين امسي مطالا للبلابل والهموم
كأدماء القرا نشدت طلاها [1] وما وجدان جازية بغوم [2]
تطيع الياس ثم تعود وجداً اليه بالمقصة والشميم [3]
يعارضني بذكرك كل شيء عداد الداء غبَّ على السليم [4]
أجدك هل ترى بعد ابن ليلى طعاناً بين رامة والغميم
أأرجو للحواضن كابن ليلى ؟ أحلت إذن على بطن عقيم

وكان الشريف يذكر ابن ليلى كلما ضجر في اسفاره ، فكأنه كان يراه ملك البيداء .

أيها السادة

ليس الذي يهمني في هذا المقام هو النص على وفاء الشريف ، وانما الذي يهمني هو تعليل ذلك الوفاء ، فالشاعرية التي كانت تتفجر في صدر الشريف هي التي جعلت الدنيا أمام عينيه منادح للأطراب والاشجان ، فاذا كان من الشعراء من يتكلف اسباب الحنين فيتفجع لغروب الشمس ، أو يتوجع لسقوط الاوراق في الخريف ، فان الرضي يجد من نوائبه الوجدانية ينابيع للحزن لا تنضب ولا تغيض .

والحزن ايها السادة طيف أسود ، ولكنه محبوب ، والشعراء هم الذين

«١» القرا الظهر ، والادماء ما في لونها ادمة ، وهي في الظباء لون مشرب بياضاً
«٢» الجازية الظبية يجزيها العشب ، والبغوم الرخيمة الصوت .
«٣» المقصة من قص الأثر اذا تتبعه ، والشميم شم الارض لتعرف الطريق الذي مشى فيه المفقود
«٤» العداد بالكسر اهتياج وجع اللديغ بعد سنة والسليم الملدوغ ، سمي بذلك تفاؤلا ، وغب الداء تحرك وهاج

جعلوا وصف الحزن من الشرائع الانسانية ، والحزن لا يكون دائماً صفة سلبية كما يتوهم بعض الناس ، فهو حين يسمو يكون دليلا على عافية القلب وسلامة الروح ، ولا يحزن حق الحزن إلا الاصحاء .

ان الحزن العنيف هو الشاهد على قوة شعورنا بما نفقد ، وهو الدليل على أننا نحاول العظائم فنطلب الخلود لكل ما تصطفي أرواحنا في عالم المحسوس والمعقول .

وما كان الشريف يبكي أحبابه مرة واحدة ثم يلوذ بالصمت ، لا ، وإنما كان يصل أحبابه بالذكرى والحنين فلا يفقد منهم غير الوجود الملموس ، فطريق الحج على طوله في تلك العهود كان يمثل للشريف أمما كثيرة من عوالم الأحياء والاموات ، ولعل ظهور الخيل لم تعرف فتى أقوى شاعرية من ذلك الفتى البكاء ، والفرح والترح يفيضان من ينبوع واحد ، لو تعلمون .

ومن عجائب ما وقفت عليه أن الناس كانوا يسالون الشريف أن يبكي موتاهم فيجيب ، والشجى يبعث الشجى ، والدنيا عند الحزين كلها قبر مالك[1] .

أليس من العجيب أن يسال الشريف بكاء ميت لا يعنيه فيقول :

ألا مخبر فيما يقول جلية يزيل بها الشك المريب يقين
أسائله عن غائب كيف حاله ومن نزل الغبراء كيف يكون

وما كنت أخشى من زماني أنني
أرق على ضرائه وألين

«١» اشارة الى ابيات متمم بن نويرة .

إلى أن رماني بالتي لا شوى لها   فاعقب من بعد الرنين أنين
وان أحق المجهشين بعبرة [1]   ووجد قرين بان عنه قرين
وما تنفع المرء الشمال وحيدة   إذا فارقتها بالمنون يمين
تجرم عام لم أنل منك نظرة   وحان ولم يقدر لقاؤك حين [2]
أمر بقبر قد طواك جديده   فابلس حتى ما أكاد أبين [3]
وتنفضُ بالوجد الاليم أضالع   وترفضُ بالدمع الغزير شؤون

ومعاذ الأدب أن يكون الشريف في هذه القصيدة كالنائحة المستاجرة، وهل كانت النائحة المستاجرة تعني حقاً من دعيت للبكاء عليه ؟ انها تبكي ودائعها في التراب فهي نائحة ثكلى مفطورة الفؤاد .

ويظهر جانب المروءة من وفاء الشريف حين نتذكر بعض المواقف التي تجلت فيها شجاعته، فقد اتفق لرجل من عظماء بغداد أن يتالب الجمهور عليه لبعض الاسباب ، وكان لذلك الرجل كثير من الاصدقاء والأشياع، فلما مات خاف أصدقاؤه وأشياعه عواقب التفجع عليه فلم يمش في جنازته غير ثلاثة منهم الشريف ، وفي هذا الحادث البشع يقول :

لعمري لقد ماطلت لو دفع الردى
مطال وقد عاتبت لو سمع الدهر
أفي كل يوم أنت غاد مشيع   حبيباً إلى دار يقال لها القبر
لئن كان لي في كل ما أنا تارك
وراء الثرى أجر لقد عظم الاجر

«١» في الديوان (لعبرة)   «٢» تجرم : مضى
«٣» أبلس يبلس سكت على ما في نفسه

سقيت أبا بكر على البعد والنوى
ولا بلّ هام الشامتين بك القطر
أخي ما أقل التابعيك إلى الثرى
واخوانك الادنون من قبلها كثر
لقد كانت النكراء منك خليقة
ولا عرف حتى يتقى قبله النكر
الا إنما الماضون منا هم الالى
أراحوا وحطوا والبواقي هم السفر
تتبعه أبصارنا وهو ذاهب
كما مال قرن الشمس أو وجب البدر [1]
عليك سلام الله فات بك الردى
ولم يبق عـــين للقاء ولا أثر

ومن هذا الباب جزع الشريف على أصدقاء لم ترفعهم مواهبهم ولا مقاماتهم لمرتبة النص على أسمائهم في الديوان، وهم ناس كانوا في صدر الشريف معارف وكانوا في زمانهم نكرات، وهؤلاء الاصدقاء المجهولون لا يعرف أقدارهم غير الشعراء، وهل من العدل أن يغلق باب الصداقة فلا يفتح إلا لمن ظفروا بالشهرة وبعد الصيت؟ أليس من حق الشاعر أن يقول: إن أخلص من ودعوني يوم الفراق هو كلبي!

ما هذه الغطرسة التي نعتصم بها فلا نهب معـــاني المودة لغير المشهورين؟ وهل كان المشهورون أصدق من نعرف حتى نقف عليهم لواعج الشوق والحنين؟

---

(١) وجب البدر: غاب.

كم رجل حرمته الطبيعة أسباب التفوق في الميادين المعاشية والأدبية والسياسية ، ثم وهبته قلباً يشعر ولساناً لا يبين !

كم رجل خامل الذكر صغير الشان يقبل عليك بنفس تواقة وقلب حنان !

كم امرأة أمية لا تعرف غير شؤون البيت ثم تمد زوجها بارواح من القوة والفتوة لا تقدر على مثلها المتخرجات في السوربون !

إن الصداقة لها منابع غير منابع العرفان ، والرجل العالم لا يصادق إلا حين يرجع إلى الفطرة الاولى ، فطرة الانسان الحساس .

فلا تلوموا الشريف إن رأيتموه يرثي ناساً لم يسمح مقامه الاجتماعي بذكر أسمائهم في الديوان ، فتلك وثبة فطرية لا تصدر إلا عن كرام الرجال .

وان وقفات كهذه لأشرف من وقفاته وهو يرثي رجلا من بني أمية أو رجلا من بني العباس ، لأن في بكاء العادلين من الخصوم لوناً من الأثرة وحب الاعلان ، أما بكاء المغمورين المجهولين فهو فيض من الطبع الصادق والاحساس الامين .

ومثل الشريف في هذا الباب مثل الفنان الذي ينحت التماثيل ، فهو دائماً يوهم الجمهور أنه يضع تمثالا لامرأة مجهولة أو رجل مجهول ، هو يخدع الناس حين يوهمهم أنه لا يهتم بغير تمثيل المعاني ، ولو أبيح له أن يفصح لقال إنه لا ينظر إلى النموذج ، وإنما يستوحي صورة هي بعض ما في ضميره من دفائن الكنوز .

وقد اهتديت إلى هذا المعنى لطول ما عاشرت المثالين ، فقد صحبت المسيو بلانشو وهو يضع تمثال العارية ، وصح عندي أن في التمثال شمائل

لم تكن في النموذج ، فادركت ان المثال يستعين النموذج على تذكر ما كان فتن به في عالم العيان .

فالشريف يجسم معاني الاخوة وهو يبكي أصدقاءه المجهولين وهو أيضاً يشرع للناس مذاهب الوفاء ، وللشعر في صدر ذلك الرجل جوهر لا يملك مثله إلا من اصطفاهم الله للتعبير عن حقائق الوجود .

أيها السادة

انكم في غنى عن التذكير بما في آداب المجتمع من أوهام وأغاليط فلا تضق صدوركم حين يطوي الشريف أسماء فريق من الذين سكب على قبورهم شآبيب الدمع السخين ، وإنما أرجوكم أن تتمثلوا ديوان شعره شبيهاً بصانع الرسامين والنحاتين في القديم والحديث ، فليس يعلم إلا الله من الذين يعنيهم فنان مثل احمد راسم أو فنان مثل محمود سعيد ، كما لا يعلم إلا الله من الذين كان يعنيهم البحتري وهو يفتتح قصائد المديح بالنسيب .

إن قلب الشاعر كالغابة الشجراء ، لا يعرف مجاهلها غير الأيقاظ من الادلاء ، وقد دللتكم على قلب الشاعر الذي اسمه الشريف لانه أقدم صديق عرفته في بغداد ، وإني لأرجو أن يعذرني حين يراني نممت عليه ، فما أذكر اننا تعاهدنا على كتمان هذه الاحاسيس .

واليكم شواهد من شعره في بكاء المغمورين ، قال من قصيدة :

مالي أودع كل يوم ظاعنا ... لو كنت آمل للوداع لقاء
وأروح اذكر ما اكون لعهده ... فكانني استودعته الاحشاء
فرغت يدي منه وقد رجعت به ... أيدي النوائب والخطوب ملاء
أحبابي الادنين كم ألقى بكم ... داء يمض فلا أداوي الداء

أحيا إخاءكم الممات وغيركم جربتهم فثكلتهم أحياء
إلا يكن جسدي أصيب فانني فرقته فدفنته أعضاء

وقال من قصيدة ثانية

أقول وقد قالوا مضى لسبيله
مضى غير رعديد الجنان ولا نكس[1]
كأن حداد الليل زاد سواده
عليك ورد الضوء من مطلع الشمس
أرى كل رزء دون رزئـــك قدره
فليس يلاقيني ليومك ما ينسى

وقال مـــن قصيدة ثالثة ، وهي في رجل كانت له شخصية ، ولا نعرف السبب في طيّ اسمه عن الناس :

ما بعد يومك ما يسلو به السالي ومثل يومك لم يخطر على بالي
وكيف يسلو فؤاد هاض جانبه قوارع من جوى هم وبلبال
يا قلب صبراً فان الصبر منزلة بعد الغلوّ اليها يرجع الغالي
نقص الجديدين من عمري يزيد على
ما ينقصان على الأيام مـــن حالي
مضى الذي كنت في الايام آمـــله
من الرجال فيا بعداً لآمالي
قد كان شغلي من الدنيا فمذ فرغت
منه يدي زاد طول الوجد أشغالي

«١» النكس بالكسر المقصر عن غاية الكرم ، والجمع أنكاس .

تركته لذيول الريح مدرجة

ورحت اسحب عنــــه فضل أذيالي

ما بالي اليوم لم ألحق به كمداً

أو أنزع الصبر والسلوان من بالي

أيها السادة

هناك جانب من غرائب الوفاء عند الشريف هو بكاء النساء ، وهذا اغرب الجوانب ، وهو يحتـــاج إلى تامل ودرس ، ولا نعرف بالضبط كيف نشأ هذا عند الشريف ، فقد كان من المالوف في التقاليد العربية أن لا يبكي من النساء غير المعشوقات ، وبكاء الامهات والحلائل باب من النبل ولكنه في شعر العرب قليل ، فقد لا يساوي واحداً من خمسين إذا أحصينا ما قيل في الرثاء ، فكيف اتفق للشريف الرضي أن يكثر من تعزية الناس في أمهاتهم وبناتهم وأخواتهم ؟

إن هذه الظاهرة ليس لها عندي غير تعليل واحد ، هو أن الشريف الرضي كان (ابن امه) كما يعبر المصريون حين يداعبون من يغضبون لامهاتهم من الاطفال .

ونحن نعرف أن أيام البؤس في حياة الشريف مضت وهو في رعاية أمه الرءوم التي باعت أملاكها وحليها لتقيه وتقي أخــــاه ذل العوز والاحتياج .

والام الرءوم لم تجد من يؤرخ فضلها في اللغة العربية ، ويندر بين كتاب العرب من يقول حدثتني أمي وأنباتني اختي واخبرتني حليلتي ، وإن كان في شعرائهم من يقبل النعال في اقدام الملاح !

وما اريد ان اطيل القول فيما اثر عن العرب والهنود من بغض البنات

فذلك معروف ، و انما اريد ان اقف عند هذه النزعة النبيلة من نزعات الشريف ، وأنا اجزم بانه كان يرى المرأة في صورة امـــه تلك الام التي وقته مكاره الحياة في السنين العجاف يوم اودع ابوه غياهب الاعتقال .

والحق ان اللغة العربية كانت تحتاج إلى مـن يمجدون الامهـــات والاخوات والبنات على نحو ما وقع في اللغات الاجنبية ، فان في المرأة عناصر مـن العطف والتضحية لا يدركها إلا ذوو الألباب ، وصاحبـنا الشريف قد وفق في هذه الناحية كل التوفيق .

ورثاء الشريف لامه يشهد بانه كان يفهم قيمة هذا المذهب النبيل ، فهو يجعل موتها باباً لشماتة الاعداء إذ يقول :

كم عـــبرة موهتها باناملي ... وسترتها متجملا بردائي
أبدى التجلد للعدوّ ولو درى ... بتململي لقد اشتفى اعدائي

والتصريح بان موت الام باب إلى الشماتة هو اعظم تمجيد لكرائم النساء .

وهو يصرح بان امه كانت تقيه النوائب ، وتنفق عليه وتواسيه ، فيقول :

فباي كف استجنُّ واتقى ... صرف النوائب ام باي دعاء
ومن المموّل لي إذا ضاقت يدي (١) ... ومـــن المعلل لي مـــن الادواء (٢)
ومن الذي إن ساورتني نكبة ... كان الموقى لي من الاسواء (٣)
رزءان يزدادان طول تجدد ... ابد الزمان فناؤها وبقائي

«١» المموّل واهب المال «٢» الادواء جمع داء
«٣» الاسواء جمع سوء وهو الردى

قد كنت آمل ان يكون امامها
يومي وتشفق أن تكون ورائي

إلى ان يقول :

لو كان يبلغك الصفيح رسائلي[1]
او كان يسمعك التراب ندائي
لسمعت طول تاوهي وتفجعي وعلمت حسن رعايتي ووفائي
كان ارتكاضي في حشاك مسبباً
ركض الغليل عليك في احشائي

وهذا البيت يتضمن صورة حسية لا يصرح بها إلا شاعر يفهم الحقائق فهو يرى حياته في بطن امه ديناً واجب الاداء . وكذلك صح لهذا الشاعر الانساني ان يعزي بعض الناس في بنت ماتت بعد بنت فيقول من قصيد طويل :

هذا العزاء وإن تحزن فلا عجب
إن البكاء بقدر الحادث الجلل[2]

ولكن ما بالنا نحصر اسباب هذه العاطفة فيا تلقاه الشريف عن امه الرءوم ؟ ما الذي يمنع من افتراض ان تكون هذه المعاني اوحيت إليه من التعرف إلى كرائم النساء ؟ ما الذي يمنع من التصريح بان اشراف الرجال لا تخلو حيواتهم من مودات شريفة نبيلة يضمرونها لبعض العقائل المصونات ؟ ما الذي يمنع من القول بأن في بنات الاعمام والاخوال ظلالا من العطف نلوذ بها في هجير الحياة ؟ بل ما الذي يمنع من القول بأن في

«١» الصفيح هنا هو القبر وجمعه صفائح

«٢» الجلل : المظيم ، وهو ايضاً الحقير ، فهو من الاضداد .

بعض الاجنبيات نفحات من الرفق نتنسم بها أرواح الفردوس ؟

وهل قضى علينا سوء الطالع أن لا تكون صلاتنا بالنساء إلا شبهات تحوطها شبهات ؟

إن تلك المعاني السود لا ينبغي أن تطيف باخيلة الكرام من الرجال ، فللرجل النبيل كل الحق في أن يشغل قلبه وذهنه بشواغل المودة الصادقة لمن يعرف من أشراف النساء ، وهذا باب من أنس الضمائر والقلوب عرفه الناس من قديم الزمان وإن جبنوا عن التصريح به فيما يكتبون وما ينظمون .

وصديقنا الشريف الرضي كان يفهم هذه المعاني ، وأكاد أجزم بانه كان يضمر الاعزاز لكثير من عقائل الكرخ وبغداد ، وأذهب إلى أبعد من ذلك فاقول انه كان يصادق كثيراً من نساء البيداء ، فان لم تصدقوا ذلك فحدثوني كيف صح له أن يقول في رثاء سيدة غيبها التراب :

على اي غرس آمن الدهر بعدما
رمى قادح الأيام في الغصن الرطب

ذوى قبل أن تذوى الغصون وعهده
قريب بأيام الربيلة والخصب [1]

كفى أسفاً للقلب ما عشت أنني
بكفي على عيني حثوت من الترب

جرت خطرة منها وفي القلب عطشة
رفعت لها رأسي عن البارد العذب

---

(١) الربيلة على وزن سفينة السمن والنعمة ، والمراد بها وفرة الشجر

وقلت لجفني ردّ دمعاً على دم
وللقلب عالج قرح ندب على ندب
ومما يطيب النفس بعدك أنني
على قرب[1] من ماء وردك أو قرب
ألا لا جوى مسّ الفؤاد كذا الجوى
ولا ذنب عندي للزمان كذا الذنب
خلا منك طرفي وامتلا منك خاطري
كأنك من عيني نقلت إلى قلبي

إي والله ، كذلك تسجل مودات الكرائم من النساء ، ولو أفنينا الاعمار في تخليد مآثر الحرائر وفضلهن على أرباب العقول لما بلغنا بعض ما نريد .

...

أيها السادة

إن المقام يضيق عن شرح ما عند الشريف من غرائب الوفاء ، ويكفي في ختام هذه المحاضرة أن نشير إلى ما في شعره من رقة الحنين ؛ فهو الذي يقول في رثاء بعض الاصدقاء :

أمسى كأن من القنا باضالعي قرعاً ووخزا
يا ثانياً للنفس بل يا ثالث العينين عزا
عضو عثت فيه المنيـ ـة ما أجل وما أعزا[2]

وهو الذي يقول :

«١» القرب بالتحريك سير الليل لورد الغد ، أو ان لا يكون بينك وبين الماء إلا ليلة «٢» عثت : عاثت ، من العيث وهو الافساد

مصابك لم يدع قلباً ضنينا   بغلته ولا عيناً جمادا[1]
كأن الناس بعدك في ظلام   أو الأيام ألبست الحدادا
وكنت أفدت خلته ولكن   أفادني الزمان وما أفادا[2]
فان لم أبكه قربي تلاقت   مغارسها بكيت له ودادا

وهو الذي يقول في التوجع على من فقد من الأهل :

قف موقف الشك لا يأس ولا طمع
وغـــالط العيش لا صبر ولا جزع
وخادع القلب لا يود الغليل به   إن كان قلب على الماضين ينخدع
سائل بصحبي أنى وجهة سلكوا
عنا وأي الثنايا بعدنا طلعوا[3]
غابوا فغاب عن الدنيا وساكنها   مرأى أنيق عن الدنيا ومستمع
أبكيهم ويد الايام دائبة
تدوف لي فضلة الكاس التي جرعوا[4]
لا أمتري انني بجر إلى أمـــد   جروا اليه قبيل اليوم أو نزعوا
أعتـــادهم لا أرجي أن يعود لهم
إليَّ ماض ولا لي فيهم طمع
فما توهج أحشائي على نفر
كانوا عوارى[5] للأيام فارتجـــعوا
ذوائب من لباب المجـــد ما فجعوا
بمثل أنفسهم يومـــاً ولا فجـــعوا

. . . .

«١» الغلة بالضم هي الظمأ الشديد والمراد بها اللوعة «٢» افدت: استفدت.
«٣» الثنايا جمع ثنية وهي الطريق في الجبل «٤» داف الشراب مزجه بشيء
«٥» في الديوان (عوادي) وهو تحريف

هـل تعلمون على ناي الديـار بكم
أن الضمير اليكم شيق ولـــع[1]
لكم على الدهر من أكبادنا شعل
من الغليل ومـــن آماقنا دفع
لواعج أفصحت عنها الدموع وقد
كادت تجمجمها الأحشاء والضلع
أنزفت دمعي حتى مـــا تركت له
غربا يفيض عـلى رزء إذا يقع[2]
ثم اضطررت إلى صبري فعذت به
وأعرب الصبر لـــا أعـجم الجزع

ومن هذه الشواهد ترون أنـــه كان يخاطب الاحباب الذاهبين ، كما يخاطب الأحباب الغائبين ، وذلك فيض من قوة الاحساس .

«١» شيق مشتاق «٢» الغرب بالفتح عرق في العين يسقي ولا ينقطع

غراميات الشريف الرضي

أيها السادة

لقد شاع في المشارق والمغارب أن الشريف الرضي كان من المغرمين، فقد كان القدماء يضربون الامثال بقصائده الحجازيات، فيقولون ما معناه: لا تصقل نفس المتادب إلا إن حفظ هاشميات الكميت وخمريات أبي نواس وزهديات أبي العتاهية وتشبيهات ابن المعتز ومدائح البحتري وحجازيات الشريف الرضي[1].

فالشريف كان معروفاً عند القدماء بصدق اللوعة والصبابة، وكانت أشعاره في الحب كؤوساً يعاقرها المتيمون.

ولكن مرت أجيال وأجيال والناس منصرفون عن ذلـــك الجانب المشرق من شعر الشريف، لأن الحياة الاسلامية قد شابها أقذاء الترمت والجمود، ولم يبق من رجال الدين من تؤثر عنه أطايب الفكاهة والظرف، أو تروى عنه غرائب الأحاديث.

وإني لأشعر بالتهيب وأنا أشرح هذا الجانب من عبقريـــة الشريف الرضي، ولكن يشجعني أني أتكلم في بغداد التي وسع صدرها مئات المذاهب والآراء في الدين والاجتماع.

وأكاد أجزم بأن الشريف الرضي لو عاش في غير العراق لما استطاع

---

(١) لم يتسع الوقت لمراجعة هذا النص. وقد قرأته منذ اكثر من عشرين سنة في دائرة المعارف للبستاني ورأيته بعد ذلك في عدة مؤلفات.

أن يجمع بين الادب والدين ، لأن الجماهير الاسلامية في غير العراق لم تكن تسمح لرجل من أساتذة العلوم الدينية أن يطيل القول في فتنة الخدود وسحر العيون .

وليس معنى هذا أن العراق خلا خلواً تاماً من التنكر لأخلاق الظرفاء من رجال الدين ، لا ، ولكنه كان أرق وأظرف من مصر التي لم يعرف علماؤها غير فناء الاعمار في التدريس والتاليف ، والتي تسقط فيها هيبة العالم إن اتهمه حاسدوه بانه أديب يحفظ بعض ما قيل في وصف الملاح .

كان الشريف الرضي يحب ويعشق ، وقد اتسع عصره وبلده لسماع ما قال في الحب والعشق ، ولكنه مع ذلك حبس عواطفه في قفص من حديد ، لأن المجتمع العراقي على تسامحه لم يكن يبيح لمثله غـــير التجمل والتوقر والاستحياء ، فكان الشريف يسقي منابت الظرف من مزاجه الرقيق بقراءة ما ينظم معاصروه من أشعار المجون ، وهل نسيتم ما أشرنا اليه من اهتمامه بدراسة أشعار ابن حجاج ؟

لقد فطر الشريف الرضي على رقة الاحساس ، ولكنه منذ نشاته كان مسئولا عن رعاية التقاليد ، وهذا السجن الاجتماعي هو الذي أخرج من وجدانه ذلك الشاعر المجيد ، لأن المشاعر لا ترهف إلا بقوة الاعتلاج ، فلو كان الشريف رجلا مطلق الحرية في تصرفاته الشخصية لكان من الممكن أن يصير ماجنـــاً يشبه الالوف ممن تنسموا أرواح دجلة والفرات ، ولكن قسوة المجتمع صهرته صهراً عنيفاً فاخرجت منه وتراً حنانـــاً يشدو فيجيد .

كان الشريف يستطيع أن يملأ الدنيا بالكلام عن التنسك والتقشف والزهد ، وكان يستطيع أن يكون إماماً منقطع النظير في علوم اللـــغة

والدين ، وكان يستطيع أن يكون رجلا تقبل يمناه لالتماس البركات ، ولكنه لو عق فطرته لكان شيخاً تافهاً كالوف المشايخ الذين سمح الدهر المخبول بان يكونوا من أساتذة الازهر الشريف ، فلم يبق إلا أن يتسامح مع فطرته بعض التسامح فيعلن بعض ما في صدره من الغرام المدفون ، ولكن كيف يعلن ذلك ؟ سيظل الرجل في حرب بين المجد والحب : هو في نفسه صالح لأن يكون من أقطاب الدولة ، ولكن ما هذه النوازع الدقاق التي تنزل به إلى الهوان في الحياة الغرامية ؟ أيصح أن يصبح الفارس المغوار أسيراً لعينين كحيلتين يشيع فيهما سحر النعاس ؟ أيمكن ان يكون المحارب الصوّال فريسة للنحور العاجية التي تعجز عن حمل العقود ؟ ماهذه الصلات الطبيعية التي تجمع بين الاضداد فتقرن القلب القاسي بالقلب الرقيق ؟ ما هذه الغرائب التي تقضي بأن لا يتم العشق بين رجل وامرأة مختلفين في العرض والطول على نحو ما كنا نرى في شوارع باريس ؟ إن الطبيعة تنتقم من الأوضاع والتقاليد ، ولكنّ أكثر الناس لا يفقهون !

إن الشريف قد تزدهيه الكبرياء فيقول :

تضاجعني الحسناء والسيف دونها
ضجيعان لي والسيف أدناهما مني
إذا دنت البيضاء مني لحاجة
أبى الابيض الماضي فأبعدها عني (١)
وإن نام لي في الجفن إنسان ناظر
تيقظ عني ناظر لي في الجفن (٢)

---

(١) الابيض هنا السيف

(٢) الجفن الغمد ، وفى البيت جناس

أغرت فتاة الحيّ مما ألفته أغلغله دون الشعار من الضن
وقالت هبوه ليـلة الخوف ضمه
فما عذره في ضمه ليلة الأمن

وهذه قطعة نفيسة من حيث المعنى والخيال ، فهل كانت من نفحات الصدق ؟ أستبعد ذلك ، فالرجل لا يضاجع السيف في ليلة الوصل الا وهو متكلف ، ولا سيما إن صرح بانه في أمان .

إنما الصدق ان يفصح عن ذات نفسه فيصرح بأنـه يلقى الجمال بوجـه متجهم وقلب رقيق ، فيقول :

ومقبل كفى وددت لو انه أوما إلى شفتيّ بالتقبيل
جاذبته فضل العتاب وبيننا كبر الملول وذلة المملول
ولحظت عقد نطاقه فكأنما عقد الجمال بقرطق محلول[1]
جذلان ينفض من فروج قميصه
أعطاف غصن البانة المطلول
من لي به والدار غير بعيدة من داره والمال غير قليل

وهذه قطعة شرحنا مـا تومىء إليه مـن الاسرار النفسية في كتاب (مدامع العشاق) منذ سنين ، وهي شاهد على النزاع بين العقل والهوى والهدى والضلال ، إن صح ان الصدق في التعبير عن خوالج القلب إثم وإسراف .

الحق ان الشريف كان صورة للنزاع بين العقل والقلب ، العقل الذي يوجب ان يكون الرجل من عبيد المجتمع ليسود المجتمع ، والقلب الذي يوجب ان يكون الرجل عند وحي الفطرة والاحساس ، وقد صدق في

«١» القرطق ثوب رقيق

التعبير عن هذه المعضلة النفسية حين قال :

ولقد أطلت إلى سلوّك شقتي وجعلت هجرك والتجنب زادي
أهون بما حملتنيه من الضنى لو أن طيفك كان من عوّادي
لا يبعدن قلبي الذي خلفته وقفاً على الاتهام والانجاد
إن الذي غمر الرقاد وساده لم يدر كيف نبا عليّ وسادي
لولا هواك لما ذللت وإنما عزى يعيرني بذل فؤادي

العز يعير بذل الفؤاد ؟ ؟

تلكم هي القصة الموجزة لحياة الشريف ، فهو في نزاع دائم بين عزة الجاه وذلة القلب ، فان لم يكف هذان الشاهدان فانظروا كيف يقول :

يا صاحب القلب الصحيح أما اشتفى
ألم الجوى من قلبي المصدوع
هيهات لا تتكلفن لي الهوى فضح التطبع شيمة المطبوع
كم قد نصبت لك الحبائل طامعاً فنجوت بعد تعرض لوقوع
و تركتني ظمآن أشرب غلتي أسفاً على ذاك اللمى الممنوع [1]
قلبي وطرفي منك هذا في حمى قيظ وهذا في رياض ربيع [2]
كم ليلة جرّعته في طولها غصص الملام ومؤلم التقريع
أبكي ويبسم والدجي مابيننا حتى أضاء بثغره ودموعي
تفلى أنامله التراب تعللا وأناملي في سني المقروع
قمر إذا استخجلته بعتابه لبس الغروب ولم يعد لطلوع
لو حيث يستمع السرار وقفتما لعجبتما من عزه وخضوعي [3]

«١» اللمى : سمرة في الشفة «٢» القيظ صميم الصيف

«٣» السرار بالكسر هو التناجي في السر

أهون عليك إذا امتلأت من الكرى
أني أبيت بليلة الملسوع
قد كنت اجزيك الصدود بمثله
لو أن قلبك كان بين ضلوعي

وهذه اشعار من فيض القلب ، والشريف في هذه الاشعار ليس هو ذلك الشيخ الجليل الذي أنشأ مدرسة سماها (دار العلم) واقام فيها مكتبة يتزود منها طلاب اللغة والدين ، وإنما هو إنسان يرى الدنيا بأعين الشعراء الذين يدركون اسرار الوجود .

أيها السادة

إن النص على هذا المعنى ضروري في هذا البحث ، فالشريف الرضي في غرامياته ليس من تلاميذ بغداد ، وانما هو من تلاميذ البيداء ، وآية ذلك ان الانفاس البغدادية لا نحسها عنده إلا في النادر القليل ، فهو بعيد كل البعد عن أنفاس الشعراء الذين تمتعت آذانهم وعيونهم بضجيج بغداد ومواكب بغداد ، وتعليل هذا سهل : فقد كان رجلا يفهم ان المفروض عليه ان لا يعرف بغير التقى والعفاف ولم تكن دنيا الناس في ذلك العهد تسمح لرجل مثله ان يخاطر بمركزه الادبي والديني في سبيل الوجد والصبابة ، وإنما كان يقهر على ذلك قهراً بما يتوقد في صدره من الغرام المشبوب ، وهو نفسه قد شعر بهذا الحرج حين قال في دفع من اتهموه بالخروج على أدب الاتقياء :

وأكذب بالتصون مدعيهم وألجم قائليهم بالعفاف

واريد ان اقول بصراحة إن الشريف الرضي كان يحاول التخلص من مذاهب البغداديين في التشبيب ، لأن أكثر الشعراء في تلك الأيام كانوا

أسرفوا في العبث والمجون، وكان يرى من موجبات الكرامة أن يترفع في نسيبه عما ألف اولئك الشعراء من التبذل والاسفاف ، وقد أوغل في التحفظ حتى كاد يهجر الشعر الرقيق ، فلم يتفق له إلا في الندرة أن يقول :

يا مقلقي قـــلقي عليـ لك أظنه ذنبي اليكا
أنت الشقيق فلو جنيـ ت لما أخذت على يديكا
أمسيت ثالث ناظريّ فكيف أقذى ناظريكا
وكفاك أني لست أعـ قد خنصري إلا عليكا

أو يقول :

يا ليلة كرم الزمـــا ن بها لو ان الليل باقي
كان اتفاق بيننا جار على غير اتفاق
واستروح المهجور من زفرات هم واشتياق
فاقتص للحقب الموا ضي بل تزودللبواقي [1]
حتى إذا نسمت ريا ح الصبح تؤذن بالفراق
برد السوار لها فأحـ ميت القلائد بالعناق

أو يقول:

كم مقام خضنا حشاه إلى اللهـ وجيماً والليل ملقى الرواق
ومزجنا خمر الرضابين في الرشـ ف برغم المدام تحت العناق
قم نبادر مرمى الزمان ببين فسهام الخطوب في الأفواق [2]

«١» الحقب جمع حقبة بالكسر وهي المدة من الزمان . وأرجو القارىء أن يتأمل جمال هذا البيت .

«٢» الافواق جمع فوق بالضم وهو موضع الوتر من السهم

واغتنمها قبل الفراق فما تعـ لم يوماً متى يكون التلاقي
نحن غصنان ضمنا عاطف الو جد جميعاً في الحب ضم النطاق

والأبيات الاخيرة من قصيدة طويلة نص الديوان على أنها في معنى سئل القول فيه ، فكأنه يتهيب الحديث عن ليالي الوصل ، ومن الشعراء من تحبسهم تقاليد المجتمع فلا يتحدثون عن أهواء النفس إلا بطريق التلميح .

صدقوني أيها السادة إذا حدثتكم أني تعبت في البحث عـن صور بغداد في غراميات الشريف الرضي ، فلم أجد غير أطياف ، كان يقول :

أنا الفداء لظبي ما اعترضت له إلا وهتك شوقاً لي أستره
لاحظته والنوى تدمي ملاحظه [1]
بعارض من رشاش الدمع يمطره
ما انفك من نفس للوجد يكتمه
تحت الضلوع ومن دمع يوفره
أهوى إليّ يداً عقد العناق بها والبين يعذله والحب يعذره
وقال تذكر هذا بعد فرقتنا فقلت ما كنت أنساه فأذكره

فهذه قطعة تذكر بابن المعتز ، أشعر خلفاء بغداد

والحق أيها السادة أن الشريف الرضي لم يكن يتكلم اللغة البغدادية إلا حين يأسره الغضب أو الحزن .

---

(١) الملاحظ بفتح الميم العيون ، وهي كذلك في قول الشاعر
يرمون بالخطب الطوال وتارة وحي الملاحظ خيفة الرقباء

كان يقول :

مواقد نيرانهم قرة [١] وسربال طاهيهم أبيض
إذا حركوا للمساعي أبوا وان انزلوا دار ضيم رضوا

وكان يقول في وصف مغن دميم :

تقذى بمنظره العيون إذا بدا وتقيء عند غنائه الأسماع
أبذاك نستشفي ومن نغماته تتولد الآلام والأوجاع
أم كيف يطربنا غناء مشوه أبداً نهال بوجهه ونراع
نزوي الوجوه تفاديا من صوته حتى كأن سماعه إسماع [٢]

وكان يقول :

أيا للمجد من قوم لئام ألا حر على عرض يغار
فاشجعهم إذا فزعوا جبان وأذكاهم إذا نطقوا حمار
لبونكم تدر لأبعديكم [٣] وعندي الذين منها والنفار [٤]
لغيري ضوء ناركم وعندي دواخنها السواطع والأوار [٥]

وكان يقول في التحزن للأموات :

رجعت في إثرهم برغمي بعد نزاع إلى نزوع [٦]
أبقى الجوى جرحة بقلبي ما عشت مكتومة النجيع
كم غابن الموت عن كريم وقارع الخطب عن قريع [٧]

«١» قرة بفتح القاف باردة
«٢» الاسماع الشتم والتشنيع «٣» اللبون الناقة ذات اللبن
«٤» الذين بكسر الذال ، ولعله لغة في الذان وهو العيب
«٥» الاوار بالضم اللهب «٦» النزاع : الشوق ، والنزوع : اليأس
«٧» القريع : السيد

بانوا فلم أنترح عليهم دمعي ولم أستنب ضلوعي
وأسفح الدمع للأعادي اني إذن فارغ الدموع

قلت إن الشريف لم يكن تلميذ بغداد وإنما كان تلميذ البيداء ، ولكن هذا القول لا يخلو من اعتساف ، فقد كانت للشريف لفتات إلى معالم العراق ، كان يصرخ :

أقول وقد جاز الرفاق بذى النقا
ودون المطايا مربخ وزرود[1]
أتطلب يا قلبي العراق من الحمى ليهنك من مرمى عليك بعيد
وإن حديث النفس بالشيء دونه
رمال النقا من عالج لشديد[2]
ترى اليوم في بغداد أندية الهوى
لها مبدىء من بعدنا ومعيد
فمن واصف شوقاً ومن مشتك حشا
رمته المرامي اعين وخدود
تلفتّ حتى لم يبن من بلادكم دخان ولا من نارهن وقود
وإن التفات القلب من بعد طرفه
طوال الليالي نحوكم ليزيد
ولما تدانى البين قال لي الهوى رويداً وقال القلب اين تريد

---

(١) مربخ بضم اوله وسكون ثانيه وكسر الباء رمل من رمال زرود ، وزرود رمال بين الثعلبية والخزيمية بطريق الحاج من الكوفة
(٢) عالج رمال بين فيد والقريات

أتطمع أن تسلى[1] على البعد والنوى
وأنت على قرب المزار عميد[2]

ولوقال لي الغادون ماأنت مشته غداة جزعنا الرمل قلت أعود[3]
أأصبر والوعساء بيني وبينكم وأعلام خبت؟ إنني لجليلد[4]

فهذه القطعة تمثل أصدق الشوق إلى العراق، وتشهد بانه كان مشغول القلب باحبابه في العراق .

وهو أيضاً الذي يقول :

دعوا لي أطباء العراق لينظروا
سقامي، وما يغني الاطباء في الحب؟
أشاروا بريح المندل اللدن والشذا
وردّ ذماء النفس بالبارد العذب[5]
يطيلون جس النابضين ضلالة
ولو علموا جسوا النوابض من قلبي

والذي يقول :

ألا إن ليـلي بالعراق كأنه طليح تجافاه الرجال ظليع[6]
مقيم يعاطيني الهموم وناظري معنى باعجاز النجوم ولوع

«١» يقال سلا يسلو، من باب نصر، وسلي يسلي، من باب رضي

«٢» عميد : اصيب عموده . فهو عميد ومعمود «٣» جزعنا الرمل : اجتزناه

«٤» الوعساء موضع بين الثعلبية والخزيمية على جادة الحاج، وهي شقائق رمل متصلة، وخبت بفتح فسكون علم لصحراء بين مكة والمدينة

«٥» الذماء بالفتح هو بقية النفس «٦» الطليح هو البعير نال منه الاعياء والظليع والظالع هو البعير يغمز في مشيه

والنبي يقول :

سقى الله دهراً حبانا الودا د مبتدها فشكرنا العراقا

والذي يقول في رجوعه من الحج يتشوف إلى قباب بغداد :

عسى الله أن ياوي لشعث[1] تناهبوا
هبـــاب المطايا نصها وانجذابها[2]

وجاسوا بأيديها على علل السرى
حرار أماعيز الطريق ولابها[3]

فيرمي بهـــا بغداد كل مكبر إذا ما رأى جدرانها وقبابها

فكم دعوة أرسلتها عند كربة اليه فكان الطول منه جوابها[4]

فالشريف لم يكن ينكر بغداد ولا العراق ، ولكنه مع ذلك لم يكن مقصور الهوى على بغداد والعراق ، فقد كانت له صبابات بالبيـــداء ، صبابات غنمها واكتوى بنارها في طريقه إلى الحج ، وهو حج مرات ورأى الظباء الحوالي والعواطل بالبيداء ، وربما كان الحج هو السبب الاول في تفتح عبقرية الشريف ، فقد كانت تمر أشهر وهو يراود الخيال فوق ظهر جمل أو سراة جواد ، ونحن نعرف فضل هذه الاسفار على الشعراء ، فالشعر يحتاج إلى غنـــاء ، وهو لا يتيسر في كل وقت لمن يعيشون في الحواضر فوق مهاوي المشكلات السياسية، والمعضلات الاجتماعية ، وإنما

«١» الشعث جمع اشمث وهو من غبره السفر

«٢» الهباب بالكسر النشاط ، والنص اقصى ما عند الناقة من السير

«٣» الحرار جمع الحرة وهي الأرض ذات الحجارة السود ، والاماعيز جمع امعوز بالضم وهي الارض الصلبة واللاب جمع اللابة واللوبة وهي الأرض ذات الحجارة «٤» الطول بالفتح الجود

يحتاج الشعر إلى فراغ من هموم العقل ليستطيع الشاعر أن يعاقر الفناء ، وكذلك يمكن القول بأن الشريف لم يدرك كيف يكون اعتلاج الشوق الا وهو يسامر الخيال في الصحراء ، وقد نظر فرأى ثروة الأدب العربي لم تتكون إلا من أصول الأخيلة البدوية ، أخيلة الأعراب الذين اتسع وقتهم للفناء ، فمضى يتحدث عن مواطن ومعالم ومنازل لا يمكن أن تتسع لها جميعاً مسالك الطريق إلى الحجاز ، وبذلك تحول الحب في قلبه إلى معركة وجدانية لا تعرف الرسوم والحدود، وإنما تتميز بما ترى القلوب من أشواظ وأقباس .

وكان للشريف في ذلك المذهب نجاة من فضول الباغين والعادين ،فهو يحنُّ إلى ديار لا يراها البغداديون إلا إذا استنجدوا طيف الخيال، وهو يذكر أسماء كان لها في أذهان الناس صور قدسية ، لأن الشعراء الأوائل كانوا خلعوا عليها أفوافا من السحر الحلال .

كان طريق الحج فرصة للتعرف إلى طوائف من الحسن المكنون وكان موسم الحج فرصة للتعرف إلى ألوان من الجمال تفرقت في بلاد الله ثم التقت في ساحات الحجيج، فكان صاحبنا يطالع كتاب الحسن بعنـــاية وإمعان، وكان كتاب الحسن في موسم الحج مختلف السطور والخطوط فكانت فية سطور شامية ، وسطور مصرية وتركية ، وسطور مغربية وأندلسية، وكانت فيه كلمات بالحروف اليمنية والجاوية والهندية، وكان الشريف من أقدر الناس على فهم الرموز من خطوط الجمال.

وهنا يبدأ الخطر على ذلك القلب الحساس

من هنا نعرف كيف كان الشريف كثير الأسى والحنين ، فالذي يشهد مواكب الحسن من مختلف الشعوب في موسم لا يدوم غير أسابيع لا يستطيع

تزويد العين والقلب بغير الحسرات ، وهل تسمح طبيعة المجتمع لأمير الحج أن يقضي ليلة فاجرة أو عفيفة مع امرأة حسناء ؟ وكيف وهو مقتول الوقت بشرح آداب السعي والرمي والطواف ؟

الواقع أن تلك المآزق هي التي أوقدت صدر الشريف ، فقد كان حاله شبيهاً بحال من يقضي أسبوعين يزور فيهما المعرض الدولي في باريس ، فيرى من غرائب الجمال ما يعشى الأبصار والقلوب ، ثم يعود وهو آثم الضمير طاهر الثياب .

ان اللغة العربية لا تعرف من الذين سجلوا مواسم الحج بقوة وعنف غير شاعرين : الاول صديقنا عمر بن أبي ربيعة ، عطر الحب ذكراه ! والثاني أستاذنا الشريف الرضي ، نضر الله مثواه !

أما عمر بن أبي ربيعة فقد كان مطمئن البـــال ، لأنه كان حجازياً يشاهد من مواسم الحج ما يشاء ، ولأنه كان خلع العذار فلم يعد يبالي أين يقع هواه ، ولأنه كان اشتهر بالحب حتى كان ظريفات النساء لا يرين تمام الحج إلا بمشاهدة وجهه الجميل .

أما الشريف الرضي فانسان آخر ، هو رجل يجيء إلى الحج نائباً عن خليفة المسلمين ، هو رجل مسئول لا يليق به اللهو ولا المزاح ، ومعه من أهل العراق رجال لا تخفى عليهم مآثم العيون ، ولعل فيهم من ينافسه أو يعاديـــه ، فهو ينظر إلى الجمال المنثور فوق بساط الحج بقلب فاتك وطرف عفيف ، وقد يتفق أحياناً أن تعفّ العيون وتفتك القلوب ! !

أيها السادة

لا تحسبوني أتفلسف على حساب الشريف ، فقد قضيت سنين وأنا أحاول فهم هذه الدقائق الوجدانية ، وأكاد أجزم بان الشريف لم يكن

يعرف السكون ولو نزل إلى مغارات الكهوف ، لان لذكريات العيون والنحور والخدود ضجيجاً يوقظ الاموات ويصم الاحياء ، وهو قد رأى من الوجوه الوسيمة ، وسمع من الاصوات الرخيمة ، ما يسوق العقلاء إلى إلى حظيرة المجانين .

وهل كان يمكن أن تتوفر تلك الثروة الشعرية لرجل يلهو ويلعب؟

هل كان يمكن أن يشهد الشريف غرائب صنع الله في مواكب الحجيج وهو في عنفوان الشباب ، ثم لا يحفظ في لوحة الذكريات ألف سورة من سور الصباحة والجمال ؟

معاذ الهوى والادب أن يكون الشريف الرضي عابثاً في الغرام ، وهل في الغرام عبث ؟ وهل كان اللعب بالحب إلا كاللعب بالجمر المتوهج ؟ ان العبث بالحب ممكن ، ولكنه مستحيل على رجل يعيش بالبيداء ، أو يمر بالبيداء ، فلاهل البيداء ومن يجاور البيداء عيون أسحر وأفتك من عيون الظباء ، وإني لأعجب كيف يعيش إنسان في العراق ثم لا يعشق وهو يرى عيون المها في كل مكان وفي كل حين ؟

ولكن الشريف صعب عليه أن يجعل العراق مرجع هواه ، لأن سياسة المجتمع كانت ترفض ذلك ، ولأن الرجل كان في ذاته شعوبي الهوى ، فكان في صدره سهام من مصر والشام والحجاز واليمن والمغرب والهند وفارس والعراق ، كان صورة للفؤاد الممزق الذي تعاورته سهام العيون .

أيها السادة

لا تلوموني في هذا اللف والدوران ، فانا أحاول أمراً يصعب اليه الوصول ، أحاول التصريح بان الاسماء التي وردت في شعر الشريف لم

تكن لها في ذهنه مسميات ، أريد أن أصرح بانه كان يسلك المذاهب الرمزية حين قال :

ولم نر كالعيون ظبا سيوف أرقن دماً وما رمن الجفونا
عوائد من تذكر آل ليلى كان لها على قلبي ديونا

فآل ليلى لم يكونوا بالفعل آل ليلى ، ولعلهم كانوا آل جميلة أو آل ظمياء ا ـ و (ذو الأثل) في قوله :

تذكرت أياماً بذي الاثل بعدما
تقضى أواني في الصبا وأوانها
يطيب أنفاس الرياح ترابها ويخضلّ من دمع النسائم بانها

لم يكن بالفعل ذا الاثل ، ولعله كان محلةمن محلات بغداد

وكذلك يمكن القول في (أراك الحمى) :

يا أراك الحمى تراني أراكا أي قلب جنى عليه جناكا
أعطش الله كل فرع بنعما ن من الماطر الروى وسقاكا
أي نور لناظريّ إذا ما مرّ يوم وناظري لا يراكا
لا يرى السوء من رآك مدى الده
ر وحيّا الآله من حياكا
ورعى كل ناشق لك دلة ه صبا طلة على رياكا

أو ما تحدث به عن رامة إذ يقول :

وحبست في طفل العشية نفحة
حبست برامة صحبتي وركابي (١)

---

(١) الطفل بالتحريك هو الشمس قرب الغروب ، ورامة منزل بينه وبين الرمادة ليلة في طريق البصرة إلى مكة

متململين على الرحال كأنما مروا ببعض منازل الاحباب

في ساعة لمـــا التفت إلى الصبا بعدت مسافته على الطلاب

وتأرجت منها زلازل ريطتي[1] حتى تعارف طيبها اصحابي

فكأنما استعبقت فـــارة تاجر[2]

وبعثت فضلتها إلى أثوابي

أشكو اليك ومن هواك شكايتي

ويهون عندك أن أبثك ما بي[3]

يا ماطلي بالدين وهو محبب من لي بدائم وعدك الكذاب

فهل تظنون أن (رامة) وردت في هذا الشعر وهي حتما رامة ؟ أم تحسبونها بقعة خياليه طافت بخيال الشريف ؟

وكذلك يمكن القول بتزوير المواضع في هذا القصيد :

خليليَّ هل لي لو ظفرت بنية

إلى الجزع من وادي الاراك سبيل

وهل أنا في الركب اليمانـــين دالج

وأيدي المطايا بالرجال تميل

وفي سرعان الريح لي علمتها شفاء ولو أن النسيم عليل

وفي ذلك السرب الذي تريانه أحم غضيض الناظرين كحيل[4]

شهيّ اللمى عاطٍ إلى الركب جيده

ختول لأيدي القانصين مطول

«١» الربطة ملاءة كلها نسج واحد وقطعة واحدة ، والزلازل الاطراف

«٢» فارة التاجر هي فارة المسك «٣» في الديوان (أن أبيت كما بي)

«٤» احم : أسود العينين

وكم فيه من حوّ اللثات كأنما جرى ضرب ما بينها وشمول[1]

علقناك يا ظبي الصريم طماعة[2]

أعندك من نيل لنا فتنيل

أنل نائلا أو لا فثنّ بنظرة فاني بالاولى الغداة قتيل

واني إذا اصطكت رقاب مطيكم

وثوّر حاد بالرفاق عجول[3]

أخالف بين الراحتين على الحشا

وأنظر أني ملـــتم فاميل

أحن وتجزيني على الشوق قسوة

ألا غـــال ما بيني وبينك غول

وما ذادني ذكر الاحبة عن كرى

ولكن ليلي بالعراق طويل

وقد يتفق له في قصيدة واحدة أن يشير إلى عدة معالم فيقول:

يا منشظ الشيح والحوذان من يمن[4]

حييت فيـــك غزالا لا يحييني

ترى الغريم الذي طال اللزوم به

في الحيّ موّل من بعدي فيقضيني

إن الخليّ غداة الجزع عيد به إلى ضمير معنى اللب مفتون

---

(١) حو جمع حواء وهي السمراء، والضرب بالتحريك العسل، والشمول الخمر تبردها ريح الشمال (٢) الصريم: الرمل المنقطع

(٣) ثور: هتف (٤) المنشظ: المنبت، والشيح والحوذان نباتات

لو لا ظباء معاطيل سنحن لنا[١]

ما كان يذهل عن عقل وعن دين

قد كان ينجو بنجد مـــن عزيمته

فعارضته عيون الربرب العين

ماء النقيب ولو مقدار مضمضة[٢]

شفاء وجدي وغير المـــاء يشفيني

ونشقة من نسيم البان فاح بها

جنح من الليل تجري في العرانين[٣]

أسقى دموعي إذا ما بات في سدف

صرير أثل بداريّا يغنيني[٤]

هيهات بابل من نجد لقد بعدت

عن المطيّ مرامي ذلك البين[٥]

فالشريف في أمثال هذه الاشعار لا يعني بالضبط ما يقول ، فهو يذكر مواضع ومنازل لا يعنيها بالذات ، وإنما يجعلها حجازاً بينه وبين الواشين ممن يسوءهم أن يصرح بمواقع هواه في الكرخ و بغداد .

أيها السادة

لا تظنوا الشريف كان من المخادعين ، لا ، و إنما كان من المتجملين فقد كان على جانب من الشجاعة حتى صح له ان يصرح بأن الحسن

«١» معاطيل غير حوال ، أي وحشيات

«٢» النقيب بالتصغير اسم مكان «٣» العرانين جمع عرنين بالكسر وهو الانف «٤» داريا اسم موضع

«٥» البين بكسر الباء الناحيه والفصل بين الارضين

يسبيه في الجنسين فيقول :

واغيد محسود على نور وجهه　　هجرت سوى لحظ البعيد المجانب
وغيداء قيدت للعناق ملكتها　　فتزّهت عنها بعد وجد ترائبي

ويقول :

ويا أهيفاً رمقته العيون　　ورفت عليه قلوب الامم
تضرّم خداه حتى عجبت　　لعارضه كيف لم يضطرم
لئن لم تجد طائعاً بالنوال　　لقد جاد عنك الخيال الملم
ومثلك ظالمة المقتلين　　تلاقى الجمال عليـــها وتم
لها في الحشا حــــافز كلما　　جرى الدمع دلّ عليه ونمّ
أقول لها والقنا شرّع　　ويرغم من قومها من رغم
لنا دون خدرك نجوى الزفير　　ويجري الدموع وشكوى الألم
وإلا فقرع صدور القنا　　ووقع الظبا وصليل اللجم

ويقول :

وقد كنت آبى أن أزل لصبوة　　وأن تملك البيض الحسان عقالي
خميصاً من الاشجان لا يوضع الهوى
بقلبي فلا اجتاز الغرام ببالي (١)
الى ان تراءى السرب بين غزالــــة
ترنح في ثوب الصبا وغزال
فلما التقينا كنت أول واجد (٢)
ولما افترقنا كنت آخر سالي

«١» يوضع الهوى ، من الايضاع وهو الاسراع　　«٢» الواجد : المشتاق .

وليلة وصل بات منجز وعده حبيبي فيها بعد طول مطال
شفيت بها قلباً أطيل غليله زماناً فكانت ليلة بليالي
فيا زائراً لو أستطيع فديته بأهلي على عز القبيل ومالي

ولكن هذه الشجاعة لها حدود يعرفها جيداً من يرشح نفسه لامارة الحج ونقابة الأشراف ومناصب القضاء ثم إمارة المؤمنين .

ومن أجل هذا كان تصويره للجوانب الحسية من الجمال تصويراً قليل التهاويل ، لا رفث فيه ولا فسوق ، فلم يستطع أن يكون خليفة الشاعر الذي قيل فيه : ما عصى الله بشعر أكثر مما عصى بشعر عمر بن أبي ربيعة ، ولم يتحدث أحـــد بأنه قرأ غراميات الشريف فدعته نفسه إلى مراجعة الضلال ، وإنما يستطيع ألوف من الناس أن يقولوا إن شعر الشريف حبب اليهم الغرام النبيل ، وساقهم إلى تمجـيد مواسم العيون في كرائم الأحاسيس .

لا تنظروا من الشريف أن يهيجكم بالأوصاف الحسية ، فما كان يملك ذلك ، وكرمكم يتسع للصفح عنه ، وقد عرفتم كيف كان مركزه في المجتمع بل أعذروه إن اكتفى بالاوصاف التي رددها الشعراء فقال :

لقين قلوبنا بجنود حرب تطاعن بالدمالج والبرينا[1]
جلون لنا لآلىء واضحات أضان بها الذوائب والقرونا
عهدنا الدر مسكنه أجاج فكيف تبدل الثغب المعينا[2]

أو قال :

«١» الدمالج جمع دملج على وزن جندب وهو المعضد، والبرين « الخلاخيل مفردها برة على وزن ثبة .

«٢» الثغب بالفتح هو بقية الماء في بطن الوادي ، والمعين : الجاري

عطون باعناق الظباء وأشرقت وجوه عليها نضرة ونعيم (١)
أمطن سجوفاً عن خدود نقية صفا بشر منها ورق أديم (٢)
شفوف على أجسادهن رقيقة ودر على لباتهن نظيم (٣)
يحلن بخلاخيل النضار وملؤها بوادي غيل بينهن عميم (٤)

تاطر أغصان الأراك أمالها
وقد رق جلباب الظلام نسيم (٥)
غرامي جديد بالديار وأهلها
وعهدي بهاتيك الطلول قديم
يقولون ما أبقيت للعين عبرة
فقلت جوى لو تعلمون قديم
أيسمح جفني بالدموع وأغتدي
ضنينا بها إني إذن للئيم
ولو بخلت عيني إذن لعتبتها
فكيف ودمع الناظرين كريم
أو قال :
هــل ناشد لي بعقيق الحمى غزيلا مرّ على الركب

«١» عطون : من العطو بالفتح وهو التناول ورفع الرأس واليدين ، وعطا الظبي : تطاول إلى الشجر ليتناول منه

«٢» السجوف جمع سجف ، بالفتح ويكسر ، وهو الستر ، والأديم الجلد .

«٣» اللبات جمع اللبة بالفتح وهي موضع القلادة من الصدر

«٤» البداوى : المنسوبات الى البادية والغيل بالفتح الساق الريان . والعميم : الممتلىء «٥» التأطر :التثني

أفلت من قانصه غرة وعاد بالقلب إلى السرب
وأظما القلب إلى مالك لا يحسن العدل على القلب
يعجب من عجبي به في الهوى واعجني منه ومن عجبي[1]
أقرب بالود وينأى به ويلي على بعدك من قربي
منعم يعطف منه الصبا لعب الصبا بالغصن الرطب
بلادة النعمة في طبعه وربما ناقش في الحب
أما اتقى الله على ضعفه معذب القلب بلا ذنب[2]
يا ماطلا لي بديون الهوى من دل عينيك على قلبي !

وفي الأبيات الأخيرة بيت عجيب ، وهو :

بلادة النعمة في طبعه وربما ناقش في الحب

وقلما يتنبه الشريف إلى أمثال هذه المعاني ، فهو قليل التحليل لأهواء الملاح ، ولكنه في هذا البيت تنبه إلى البلادة التي نراها أحياناً في الجمال المترف ، ففي بعض منازل النعيم ألوان من الجمال تشبه في مداركها جمال التماثيل ، والذكاء في أهل الجمال قليل الوجود ، ولكن هذه أثرة نفسانية فالشعراء يحبون أن تضج الدنيا لهم حين يظهرون ، وهم ينسون أن الجمال لو أعلن شعوره بهم في جميع الاحايين لانقلبت الدنيا إلى مسارح من العبث والمجون .

---

(١) العجب بفتح العين التعجب ، والعجب بالضم التيه والازدهاء

(٢) معذب بصيغة الفاعل

وصف السود الملاح

أيها السادة

حدثتكم منذ أشهر أن ابن سكرة كان أولع بجارية سوداء فقال فيها ألوف الأبيات، وحدثتكم أن الشريف الرضي تأثر ذلك الشاعر في وصف السود الملاح ، وفي هذا المساء يتضح لكم أن الشريف وقف عند حده في الوصف ، فلم يتعد الكلام عن اللون ، إذ قال على لسان من سأله مدح جارية سوداء :

لاموا ولو وجدوا وجدي لقد عذروا
وذنب من لام مظلماً غـــير مغتفر
لمـــا تمالوا على عذلي أجبتهم بعز معترف لا ذل معتذر
أهوى السواد برأسي ثم أمقته فكيف يختلف اللونان في نظري
تأبى طلائع بيض ذر شارقها
في عارضي أن تكون البيض من وطري
إني علقت سواد اللون بعدكم علاقة تشمت الظلماء بالقمر
لو لم يكن فوق لون البيض ما رقمت
صبغ الليالي على الاجياد والعذر
جعلته لسواد الرأس تذكرة
أن تفقد العين يرض القلب بالأثر
والليل أستر للخالي بلذته والصبح أفضح للساري على غرر

وللفتى في ظـــلام الليل معذرة

وما له في الضحى إن ضل من عذر

لا أجمع الحب للبيض الحسان إلى

ما بيض الدهر والايام من شعري

وكيف يذهب عن قلبي وعن بصري

من كان مثل سواد القلب والبصر

فما هذا الكلام ؟ وما هذا المنطق ؟ ان الشريف في هذه القصيدة يعبث عبث الاطفال !

فهل من الحق ان الرجل يعشق السوداء لان سوادها يذكره بسواد الناصية ؟

وهل من الحق ان الرجل يبغض البيضاء لأن بياضها يذكره ببياض الشيب ؟

نترك هذا : وننظر قوله من كلمة ثانية :

أحبك يا لون الشباب لأنني رأيتكما في القلب والعين توأما

سواد يود البدر لو كان رقعة بجلدته أو شق في وجهه فما

لبغض عندي الصبح ما كان مشرقا

وحبب عندي الليل ما كان مظلما

سكنت سواد القلب إذ كنت شبهه

فلم أدر من عز مـــن القلب منكما

وما كان سهم الطرف لولا سواده

ليبلغ حبـــات القلوب إذا رمى

إذا كنت تهوى الظبي ألمى فلا تعب
جنوني على الظبي الذي كلـــه لمى

فماذا ترون في هذه الابيات ؟ هل غرست في قلوبكم الميل إلى السواد في الملاح ؟

ولنسايره مرة ثالثة فننظر كيف يقول :

أذات الطوق لم أقرضك قلبي   على ضنٍ بـــه ليضيع ديني
كفاك حلي جيدك أن تحلى   باطواق النضار أو اللجين
سكنت القلب حيث خلقت مـــنه
فانت من الحشا والناظرين
أحبك ان لونك لون قلبي   وإن ألبست لوناً غير لوني
عديني وامطلي وعدي فحسبي   وصالا أن أراك وأن تريني
نظرتك نظرة لمـــا التقينا   على وجلين من هجر وبين
كاني قد نظرت سواد قلبي   بوجهك ظاهراً لسواد عيني

الحق ان اشعار الشريف في النساء السود كلها لعب في لعب ، وقد جاء في الديوان أنه سئل أن يقول في السواد كما قال ابن الرومي فقال ، والسكوت كان أولى وأوجب ، لأن الشريف لم يكن يستطيع أن يجاري ابن الرومي في هذا الميدان ، وكيف وابن الرومي شاعر فاجر لا يضيره أن يذكر الخصائص الاصلية في المليـــحة السوداء ؟ وهل كان يكفي أن يقال ان السواد أفضل من البياض كما فعل الشريف ، وكان من الغافلين ؟

إن قصيدة ابن الرومي في محبوبته السوداء قصيدة فريدة في الشعر

العربي ، وما كان يجوز للشريف أن يتورط في معارضته ، لأن الفصل في هذه القضية ما كان يمكن لشاعر يتقنع بالحيـــاء ، ومركز الشريف في المجتمع لم يكن يسمح له بأن يخلع قناع الحياء .

الواقع أن الشريف لم يكن يستطيع أن يفضل لوناً على لون ، أو جنساً على جنس ، لأن هذا التفضيل لا يتيسر إلا لجماعة مـــن الشعراء سيصيرون فيما يقال من حطب الجحيم .

والشريف فيما نرجح كان رجلا « طيباً » يصف الجمال بالسماع !

عفاف الشريف

أيها السادة

رأيتم ما كان يحيط بشاعرنا من الحرجات ، ورأيتم انه حرم نفسه أعظم لذة يتغنى بها المشببون ، فلم يصف مراتع الانس، وملاعب الطيش، ولم يتحدث عن أسرار الهوى في الكرخ أو بغداد .

وقد آن أن تعرفوا بوضوح أن شاعرنا لم يكن له بدّ من الحديث عن العفاف ، العفاف المطبوع أو العفاف المصنوع ، ومن المؤكد عندي ان الشريف كان من المتجملين ، ولم يكن من المنافقين ، فهو قد عشق بالفعل ، وكيف لا يعشق والعراق بفطرته مفطور على تقلب القلوب ؟ ألم تروا كيف يتلاعب جوه من صحو إلى غيم ، ومن برد إلى قيظ ؟ ألم تروا إلى أهله كيف يغضبون ويبتسمون في لحظة واحدة ؟ ألم تلاحظوا ان العراق تفرد بمزية غريبة هي الإسراف ، ففيه ظهر أعاظم النساك ، وفيه نبغ أكابر الفساق ؟

إن هذه الطبيعة المزدوجة هي الشاهد على تقلب القلوب ، والقلوب لا تتقلب إلا بقوة الاحساس ، والاحساس القوي هو منـــبع العشق ، والعشق على جموحه هو أساس النظام في حياة الرجال .

وكان من حظ الشريف ان يكون صورة طريفة لذلك الازدواج فلم يكن من النساك ولا مـــن الفساق ، وإنما كان قلبه مسرحاً لتقلب الاجواء العراقية ، فكان فاسق النظر عفيف الخطرات ، خطرات القلب

والروح .

ولم يكن عفاف الشريف باباً من عفاف الضعفاء اصحاب الحب العذري فالعذريون في حقيقة الامر كانوا مرضى لا يحسنون صيال الفحول ، اما الشريف فكان رجلا قويا، وكانت فحولته تدعوه إلى التفكير في شريف المصاهرات ، وهو قد تزوج بالفعل وأنجب ، فلم يبق إلا ان يكون عفافه باباً من التصون ليسلم من ألسنة السفهاء ، والتصون هو في ذاته قوة ،لأن كبح النفس يحتاج إلى نضال ، وقد ناضل صاحبنا في سبيل شرفه فلم يمت إلا وهو مرموق الجلال .

أيها السادة

لاتحسبوني أتفلسف ، فانا في هذه المحاضرات من خدام الحقائق وحولي عيون وارصاد تصدني عن شطط الخيال .

وقد تأملت ما قال الشريف في العفاف مرات ومرات قبل أن أدوّن الكلام الذي تسمعون ، وصح عندي أن غراميات ذلك الرجل كانت عراكاً في عراك .

هو عفيف ، ولكن حديثه عن عفافه يشعرنا بأنه كان يجاهد هواه جهاد المستميت ، وانظروا كيف يقول :

تذكرتِ أياماً بذي الاثل بعدما ... تقضى أواني في الصبا وأوانها
يطيب انفاس الرياح ترابها ... ويخضلّ من دمع الغمائم بانها
ولما عطفت الناظرين بلفتة ... الى الدار عبرة العين شانها
ليالي تثنيني عواطف صبوتي ... إلى بدويات تثنى لداتها

ولا لذة إلا الحديث كأنه لآل على جيداء واه جمانها [1]
عفـــاف كما شاء الآله يسرني وإن سيء منه بكرها وعوانها

فما رأيكم في هذه الأبيات ؟ أعلنوا رأيكم بصراحة ، فليس بيني وبينكم حجاب ، ألا ترونها جميعاً قوية ، ألا هذه الشطرة :

عفاف كما شاء الآله يسرني

وإنما أستضعف هذه الشطرة لاني أعتقد أن مشيئة الله أقحمت إقحاماً في هذه الأبيات مراعاة لأهواء الجهلاء !

وهذه الابيات :

يشكو الحبيب إليّ شدة شوقه وأنا المشوق وما يبين جناني
وإذا هممت بمن أحب أمالني حصر يعوق وعفة تنهاني [2]
لله ما أغضت عليه جوانحي والشوق تحت حجاب قلبي عان [3]

فهل ترون فيها إلا اعتلاجاً في اعتلاج ؟ هل ترون إلا رجلا يخشى ثورة المجتمع على من يرشح نفسه لأعظم المناصب الدينية ؟

وهذه الأبيات :

ولما أبى الأظعان إلا فراقنا وللبين وعد ليس فيه كذاب [4]
رجعت ودمعي جازع من تجلدي يروم نزالا للجوى فيهاب
وأثقل محمول على العين دمعها إذا بان أحباب وعزّ اياب

«١» جيداء : وصف من الجيد بالتحريك وهو دقة العنق مع طول ، والجمان على وزن غراب اللؤلؤ ، واحدته جمانة

«٢» الحصر بالتحريك هو العي في المنطق

«٣» عان : أسير «٤» كذاب بكسر الكاف وفتح الذال بدون تشديد

فمن كان هذا الوجد يعمر قلبه   فقلبي من داء الغرام خراب
ومن لعبت بيض الثغور بعقله   فعندي أحر البارد ين رضاب [1]
يعف عن الفحشاء ذيلي كأنما   عليه نطاق دونها وحجاب
إذا لم أنل من بلدة ما أريده   فما سرني أن البلاد رحاب

فهل ترون هذه الأبيات إلا صورة من صور النضال بين المجد والحب؟ ان الشاعر يصرح باللوعة ، ثم يثور على هواه فيعلن أن قلبه من داء الغرام خراب ، ليصح له أن يقول إن المجد غاية مناه ، وليس من الكثير على مثله أن يدوس الهوى في سبيل المجد ، فتلك ثوره نفسية عرفها أحرار الرجال ولكن من الواجب أن نتذكر هذا لنعرف أن صاحبنا لم يؤثر العفاف وهو طائع ، وإنما اختار العفاف لأنه أصلح الصفات لبلوغه من المجد ما يشتهيه وللمجد شهوة أقوى وأفحل من شهوة الجمال .

ثم اسمعوا الابيات الآتية فهي أغرب :

وأبقت لي الأيام حزماً وفطنة   ووقرن جاشي بالامور الغرائب
توزع لحمي في عواجم جمة   وبان على جنبي وسم التجارب [2]
وأرض بها بعث الصبابة والصبا
وناهض قلبي الهم من كل جانب
وزور من الأضغان نحوي كأنما
يلاقيهم شخصي لقاء المحارب [3]

«١» الرضاب بضم الراء هو الريق
«٢» العواجم جمع عاجم وهو الذي يعجم العود ، أي يعضه ليختبر صلاحيته لعمل الرماح ، والوسم في الاصل الكي ، ومنه الميسم وهو المكواة
«٣» الزور بفتح الزاي هم الزائرون

أناسيهم بغضاءهم غير غافل وأسالهم معروفهم غير راغب
وإني لأطويهم على عظم دائهم وأقعد منهم بين رام وجالب
ألا رب مجد قد ضرحت قذاته[1]
وكان على الأيام جم الشوائب
وسر كتمت الناس حتى كتمته
ضلوعي ولم أطلع عليه مآربي
وأغيد محسود على نور وجهه
هجرت سوى لحظ البعيد الجانب
وغيداء قيدت للعناق ملكتها فنزهت عنها بعد وجد ترائبي
وما عفة الانسان إلا غباوة
إذا لم يكافح داء وجد مغالب

ألا ترون قوة النفس في هذا الشعر الغريب ؟ ألا تشهدون عثير المعركة بين العقل والقلب؟ ان الرجل يصرح بأن العفة ضرب من الغباوة والجهل ولا يرى لها أية قيمة إلا إن كانت باباً من الكفاح، الكفاح ضد أدواء الوجد المغالب. والشاعر بهـــذه الوثبة الشعرية يؤرخ قلبه أعظم تاريخ ، فهو يدرك نور الوجوه ــ ولبعض الوجوه أنوار ــ ويدرك حلاوة العناق ــ وفي بعض العناق حلاوة تزلزل الجبال ــ ولكنه بجانب ذلك يتذكر مطالبه العالية في ساحات المجد، والمجد فيه نور ، وفيه رضاب ، وفيه عناق ، وفيه كل ما تشتهي أنفس الفحول، وهل يشقى الناس أنفسهم في سبيل المجد إلا إذا رأوه أروع وأفتن وأملح وأعذب من جميع ما تغريهم بـــه بوارق الحسن الفتان ؟

---

(١) ضرح القذاة منعها ونحاها

ولكن هذا الجبار المتمرد على الحب قد يتفق له أن يرق فيقول:

يقربعيني أن أرى لك منزلا بنعمان يزكو تربه ويطيب[١]

وأرضاً بنوّار الاقاحي صقيلة تردد فيها شمال وجنوب

وأي حبيب غيب الناي شخصه

وحال زمان دونه وخطوب

تطالت الاعلام بيني وبينه وأصبح نائي الدار وهو قريب

لك الله من مطلولة القلب بالهوى

قتيلة شوق والحبيب قريب

أقل سلامي إن رأيتك خيفة وأعرض كيما لا يقال مريب

وأطرق والعينان يومض لحظها اليك وما بين الضلوع وجيب[٢]

يقولون مشغوف الفؤاد مروّع

ومشغوفة تدعي به فتجيب[٣]

وما علموا أنا على غير ريبة بقاء الليالي نغتدي ونؤوب

عفافي من دون التقية زاجز

وصونك من دون الرقيب رقيب

عشقت ومالي يعلم الله حاجة

سوى نظري والعاشقون ضروب

«١» يرى القارىء في صفحة ١١٩ من هـــذا الجزء ان الشريف دعى على (نعمان) بالعطش ، وهو الآن يعطف عليه ، وهذا يؤيد ما قلناة من أن النص على هذه المنازل قد لا يدل على انه يعنيها بالذات – ونعمان اسم لعدة مواضع ، اشهرها نعمان الأراك وهو بين مكة والطائف

«٢» كلمة (ما) في هذا الشطر اسم موصول

«٣» في الديوان (تدعو به فيجيب)

ومالي يا لمياء بالشعر طائل

سوى أن أشعاري عليك نسيب[1]

أحبك حباً لو جزيت ببعضه أطاعك مني قائد وجنيب

وفي القلب داء في يديك دواؤه

ألا رب داء لا يراه طبيب

وهذه قطعة تصافح القلوب ، ولكن ماذا صنع صاحبنا الشريف ؟ لقد ترفق بمحبوبته فمنحها شطراً من الفضل إذ جعل تصونها أعنف الرقباء ، وهذا معنى إنساني نبيل ، وهل ينكر منصف أن من النساء من يجاهدن الهوى كما يجاهده أعفاء الرجال ؟ هل ينكر منصف أن هناك نساء نعاشرهن طوال السنين وفي قلوبنا وجد مشبوب ثم نكتفي منهن بحلاوة الانس وبشاشة الحديث ؟

لا تقولوا ان الشريف يتكلف العفاف ، فان حاله يختلف عن حال أبي نواس وأمثال أبي نواس ممن لا يرون الوجوه الصباح إلا في المواخير ، فان التبذل في وصف ليالي الانس يقبل من شاعر لا يرى وجه الدنيا إلا في سراديب الحانات ، أما الشعراء الذين تسمح لهم مقاماتهم في المجتمع بأن يكونوا على صلات مع كرائم « العائلات » فلهم شان آخر ، لانهم يدخلون بيوتاً لها قدسية المحاريب ، وليس من التزيد أن أقول اني عرفت هذا النوع من الحياة فرأيته أغرب الالوان في عالم الشعر والخيال ، وله لذة أنضر وأعمق من لذة العبث والمجون ، ولكن أين من يدرك كرائم المعاني ؟

---

(1) لمياء : اسم امرأة ، من اللمى وهو سمرة الشفتين ، والعرب يحبون سمرة الشفاه ، وما أحسبهم على ضلال !

ثم اسمعوا أيضاً كيف يقول :

وللّه قلبي ما أرق على الهوى وأصبى إلى لثم الخدود النواضر

يحن إلى ما تضمن الخمر والحلى[1]

ويصدف[2] عما في ضمان المآزر

ولما غدونا للوداع ونفرت

صروف النوى دون الخليط المجاور

عنيت من القلب العفيف بعاذل[3]

ومن خدع الشوق السفيه بعاذر

عشية لا عرس الوفاء بمرمل لدينا ولا أم الصفاء بعاقر

ومن لم ينل أطماعه من حبيبه رضي غير راض بالخيال المزاور

وكنت أذود الدمع إلا أقله لسقيا حمى من بعد بينك داثر

وإني لا أرضى إذا ما تحملت اليه مرابيع السحاب المواطر

فهل رأيتم أدق من هذا الوصف ؟ وهل رأيتم أظرف من هذا العاشق المنافق ؟ ما هو الفرق بين ما يضمر الخمار ، وما يضمن الازار ، يا مولانا الشريف ؟

الفرق بعيد جداً ، فالحنين إلى ما يضمن الخمار هو من النوازع التي يتفرد بها أصحاب الأذواق الرقاق ، أما التطلع إلى ما يضمن الازار فهو من شهوات الأذواق الغلاظ !

ثم انظروا صورة النزاع بين العقل والقلب ، انظروا كيف يبتلى

«١» الخمر جمع خمار بكسر الخاء ، والحلى جمع حلية «٢» في الديوان (يصدق) وهو تحريف «٣» عنى يعنى — من باب ضرب — شقى يشقى

الرجل بقوتين : قوة العاذر من الشوق السفيه ، وقوة العاذل من القلب العفيف

لقد سمعتم بما سماه القدماء خيال البحتري ، ولعلكم قرأتم تفصيل ذلك في كتاب (مدامع العشاق) ولكن ألا ترون أن الشريف بلغ الغاية في وصف تفاهة الفرح بالطيف حين قال :

ومن لم ينل أطماعه من حبيبه رضى غير راض بالخيال المزاور

تأملوا عبارة (رضى غير راض)

وبعد هذه القطعة أبيات أرى إمتاع أسماعكم بها ، فهي عندي من وثبات الخيال .

كليني إلى ليل كأن نجومه تغازل طرفي عن عيون الجآذر

أمر بدار منك مشجوجة الثرى

بمجرى نسيم الآنسات الغرائر [1]

تمر عليها الريح وهي كأنها تلفت في أعطاف تلك المقاصر

ألا ترون يا أدباء بغداد كيف يزعم شاعركم ان للطبيعة احاسيس ؟

ألا ترون كيف يدعي ان الرياح تمر بتلك الدار فتتلفت إلى ما فيها من مقاصير ؟

ليت الوقت يسمح باسماعكم فقرات من كتاب (التصوف الاسلامي) لتروا بقوة المنطق ان الشريف لم يكن عابثاً ، وإنما كان يحس ماسيقوله انصار القول بوحدة الوجود بعد مئات السنين . وهل يعقل أن تمر الريح بالوادي الجديب ، كما تمر بالوادي الخصيب؟ هل يعقل أن تمر النسمات

---

(١) مشجوجة : مجروحة

بوجوه اهل البلادة كما تمر بوجوه ارباب القلوب ؟

وهل اختلت الموازين في الدنيا حتى نصدق أن الارض التي تدوسها البهائم كالارض التي تتخطر عليها أقدام الظباء ؟

نترك هذه الفلسفة الوجدانية ، وننتقل إلى قول الشريف :

يا وقفة بوراء الليل اعهدها كانت نتيجة صبر عاقر الوطر

والوجد يغصبني قلباً اضن به والدمع يمنع عيني لذة النظر

طرقتهم والمطايا يستراب بها والليل يرمقني بالانجم الزهر

اصانع الكلب ان يبدي عقيرته[1]

والحيّ مني إذا اغفوا على غرر[2]

وفي الخباء الذي هام الفؤاد به نجلاء من اعين الغزلان لا البقر[3]

ابرزتها فتخاصرنا مباعدة عن الخيام نعفي الخطو بالازر

ثم انثنيت ولم ادنس سوى عبق

على جنوبي لريا بردهـــا العطر

وفي هذه القطعة الفاظ طريفة كعبارة (عاقر الوطر) ونعوذ بالله من الوطر العاقر ، ونساله السلامة من عقم الاماني ! وفيها ايضاً سياسة يحسنها المحبون ، وهي مصانعة الكلاب ، ولا بدّ لكل عاشق من مصانعة الكلاب ، بل لا بد لكل رجل من مصانعة الكلاب !

ولكني احب ان انوه بتلك المخاصرة ، فما يليق ان يعيش صاحبنا عيش المحروم في جميع الاحوال ، وهل يتفق العفاف مع المخاصرة ؟ تلك إحدى المعضلات ؟

«١» العقيرة يراد بها الصوت «٢» الغرر بالتحريك هو التعرض للهلاك .

«٣» في الديوان (والبقر)

ان العفاف هنا ليس صورة للعفاف الذي يمضغه ادعيـــاء الدين ، وإنما هو عفاف الشاعر الذي يرى ما دون الرذيلة مباحاً في مباح ، ويكفي لغفر ذنوبه ان يمتعنا بهذا البيت :

ثم انثنيت ولم ادنس سوى عبق
على جنوبي لريا بردها العطر[1]

الله أكبر ! ما هذا السحر يا اظرف الفاسقين !

ثم ماذا ؟ ثم يقول في مخاطبة الظباء :

انا من علمتن الغـــداة نقية ازري وضامنة العفاف مآزري
فاعرفن كيف شمائلي وضرائبي وانظرن كيف مناقبي ومآثري
كمعاقد الجبل الاشم معاقدي ومجاور البيت الحرام مجاوري

وكان يمكن أن نعيب عليه النص على المآزر في هذا الكلام النفيس ، ولكن ماذا يصنع والناس في سرهم وجهرهم يطوفون حول ذلك الجمر المدفون!

وحسبه من الشرف ان يقول :

ومجاور البيت الحرام مجاوري

فهذا كلام لا يقوله إلا الفتيان الشرفاء ، وفيه صور لاتخفى على اللبيب.

ثم يقول :

وكم ليلة بتنا على غير ريبة علينا عيون للنهى ومسامع
نفض حديثاً عن ختام مودة معاقلنا احشاؤنا والاضالع
يكاد غراب الليل عند حديثنا يطير ارتياحاً وهو في الوكر واقع
خلونا فكانت عفة لا تعفف وقد رفعت في الحيّ عنا الموانع

«١» الريا : الرائحة العطرة

سلوا مضجعي عني وعنها فاننا رضينا بما يخبرن عنا المضاجع

فالى من توجه هذا الكلام ايها الفاجر العفنف ؟

وما رأيك إذا خبرناك اننا سالنا تلك المضاجع فانبأتنا ان اكاذيبك الطريفة لن تمنع من دخولك الجنة مع الصادقين ؟ !

ايها السادة

تذكرو ان الشريف شاعر ، وللشعراء اضاليل افضل مـــن الهداية واكاذيب اشرف من الصدق ، وعبث ماجن هو في جوهره انضر واطيب من الجد الرزين .

حجازيات الشريف

ايها السادة

سمعتم فيما سلف ان الشريف الرضي تفتحت عبقريته بفضل طريق الحج، وموسم الحج، ورأيتم أقباساً من جذوات وجده المشبوب.

ونريد اليوم ان نتكلم بالتفصيل عن قصائده الحجازيات.

ولي مع تلك الحجازيات تاريخ، فقد القيت عنها محاضرة في نادي الموظفين بالقاهرة منذ سنين، ثم كتبت عنها بعد ذلك فصولا مطولة في جريدة البلاغ، وقد حاولت إحضار تلك الفصول من القاهرة، ولكني لم استطع. فأنا اكتبها للمرة الثالثة، وذلك عناء اتقبله في سبيل الشاعر البكاء الذي خلد مواسم العيون والقلوب.

ايها السادة

ان أسلافنا لم يخطئوا حين جعلوا حجازيات الشريف من فرائد الشعر العربي، فهي قصائد تفردت بغرائب من الاحاسيس، والشريف في هذه القصائد من فحول الابتكار والابداع، فهو لا يكرر ما سبق اليه الشعراء، وإنما تتفجر عبقريته عن معان طريفة تشوق الاذواق والعقول.

والشريف في الحجازيات كابي نواس في الخمريات، فإن أبا نواس ألح إلحاحاً شديداً في وصف الصهباء، وكانت لجاجته في وصفها خليقة بان تقذف به في مهاوي الاسفاف، ولكنه مع ذلك تماسك وظل دائماً من المبدعين.

وكذلك الشريف، فهو لم يكتف في وصف موسم الحج بقصيدة أو قصيدتين أو ثلاث قصائد أو سبع قصائد، وإنما قال وأعاد، ثم قال وأعاد حتى بلغت قصائده في الحنين إلى موسم الحج نحو الاربعين.

وأنتم تدركون أيها السادة خطر هذا الاسراف، فقد كان كفيلا بان يسوقه إلى مدارج الابتذال، ولكن الشاعر ظل قويا، وظلت معانيه جديدة على الزمان، فهو في حجازياته قادر على أن يبهر بيرون وجوت وميسيه، ومن اليهم من الشعراء الذين جعلوا الحب شريعة إنسانية لها من الشعر فرقان وانجيل.

واني لأخشى أيها السادة ان اكون بهذه الاشارة ظلمت الشريف فالشعراء العشاق في فرنسا وانجلترا وألمانيا والنمسا وإيطاليا عاشوا في بلاد لا تدعي أنها تحرس الدين والتقاليد في الاندية الادبية، أعني أنهم نظموا قصائد الحب في بيئات يغلب عليها المرح، ويصرفها الفتون، فالشاعر كانت تسوقه المغريات إلى التشبيب، والملاح اللائي يدرن الاندية الادبية إدارة الكؤوس كنّ يطلبن بالقول أو بوحي الملاحظ أن تكون لهن سيرة كالجدائل المعطرة في قصائد الشعراء، فلم يكن من المستغرب ولا المستبعد أن تتسع مذاهب القول في وصف الوسامة والجمال.

أما الشريف فكان ينظم الحجازيات في مواطن لا يجوز فيها رفث ولا فسوق، وينشدها بين أقوام يصطحبون ويغتبقون بالتسبيح والتكبير والتهليل.

فانصفوا الحق أيها السادة واعترفوا بان الحجازيات ما كانت تصدر عن شاعر يعيش في بيئة مثقلة بالتحرج والتعفف والتنسك إلا إن كانت جذوات صدره أقوى وأعنف من أن تطفئها شآبيب التحنف بين زمزم

والحطيم .

أنتم اليوم في عصر يسمونه (القرن العشرين) ويزعمون أنه حرر المشاعر والقلوب من رباق التقاليد، فهل فيكم شاعر يملك من الجرأة ما كان يملك الشريف منذ نحو ألف نسمة، يوم كانت قالة السوء تصرف رجلا مثله عن ولاية المظالم وإمارة الحج ونقابة الاشراف؟ هل يستطيع طلعت حرب وهو رجل حر الذهن والعقل أن يضيف إلى الشريط السينمائي : شريط الحج، منظراً يمثل موقعة غرامية في سفح عرفات ؟ انه لو فعل لقامت قيامة المتزمتين في مصر والمغرب والشام واليمن والحجاز والعراق وقال القائلون انها دسيسة يراد بها انتهاك المناسك، والغض من هيبة الاسلام .

تصوروا ايها السادة أن وصف الحسن الذي ينثر أيام الصيف على الشواطىء المصرية يضيف الشاعر أو الكاتب إلى عصبة الماجنين ، وإن صح لأحد شعرائنا أن يقول في شاطىء الاسكندرية :

رعاه الحب من شط جميل خفيف الروح مصقول أنيق
بهيّ الرمل تحسبه سجوفا مطرّزة بحبات العقيق
أطوف به فيغلبني خشوعي كأني طفت بالبيت العتيق
أيا حرم الظباء أنرت روحي بمشكاة من الحسن الرفيق
ولو كشفت غشاوتهم لقالوا صبايا الخلد تسبح في الرحيق

إنه لا مفر من الاعتراف بأن الشريف كان مثال الجرأة والشجاعة حين استطاع أن يؤرخ هواه في أيام الحج بقصائده الحجازيات ، وهذه الجرأة كانت من فيض الشاعرية ، فان الشاعر الحق أشجع الناس ، وأقدرهم على الاستهانة بالمكاره والحتوف .

قد تقولون : ان عمر بن أبي ربيعة سبقه إلى هذه الجرأة، ونجيب بأن

الفرق بعيد بين الشاعرين : فعمر بن أبي ربيعة نشأ في صدر الاسلام يوم كان ديناً سمحاً لا تثقله الاوهام التي أثقلته فيما بعد حين حمل أوزار الواغلين الذين نقلوا اليه أوضار الترمت والجمود، فيما ورثوا عن اصولهم في الشرق أو في الغرب، من بلادات المتزهدين، وغباوات المتقشفين، ورقاعات المتنسكين، كان عمر بن أبي ربيعة يعيش بين أمراء و خلفـــاء كانوا في حقيقة الامر من أشراف الفتيان، وكان الناسكون لعهده رجالا ظرفاء لا ينكرون حقوق الافئدة والقلوب .

أما الشريف فعاش في الصدر الثاني من القرن الرابع بعد أن حمل الاسلام ما حمل من عسير التقاليد، وبعد أن كانت بغداد قد عرفت ألواناً من التزهد والتقشف تجعل الغزل في مواسم الحج ضرباً من اللهو والفجور مع استثناء الظرفاء من الصوفيين العراقيين الذين أطفنا باخبارهم في كتاب (التصوف الاسلامي) .

ذلـــك فرق بين العصرين : عصر صديقنا عمر وعصر استاذنـــا الشريف.

وهناك فرق بين الرجلين : فعمر بن أبي ربيعة كان في يأس من المجد السياسي، فلم يكن ينتظر أبداً ان يكون له مجال في سياسة الدولة الاسلامية التي استبد بها الامويون، وكذلك اقبل على دنياه ينهب منها ما تسمح به مواسم الحج من التطلع إلى الخدود النواضر، والعيون الفواتك، ويخلق لنفسه آفاقاً من السيطرة الوجدانية تعوض ما فاته من السيطرة السياسية والانسان حيوان لئيم يهمه أن يسيطر في أي ميدان .

أما الشريف فكان له حال غير تلك الحال ، كان الشريف علوياً ، والعلويون كانت لهم مطامع سياسية توارثوها من جيل إلى جيل، والذي

يراجع ما فصلناه في كتاب (المدائح النبوية) يعرف ان اولئك القوم كانوا تبلغوا غاية الغايات في رياضة أبنائهم وأحفادهم وأسباطهم على الايمان بانهم مظلومون وان الدنيا لا تصلح إلا إن رجع اليهم الامر في قيـــادة المسلمين ، وقد وصلوا في ذلك إلى غاية لا تحتمل ولا تطاق فكانوا يتصورون ان الدنيا ــ إن لم يسوسوها ــ ستظل ظلمات من فوقها ظلمات .

وكان الشريف الرضي يرى نفسه أهلا للخلافة الاسلامية ، وساعده على ذلك مركز أبيه في المجتمع ، وتشرفه بالانتساب إلى علي بن أبي طالب وكان لعلي بن أبي طالب سلطة روحية هائلة في تلك العهود ، ويكفي أن نحدثكم ان الخليفة القادر أذاع في الناس انه رأى في منامه نهر الصليق قد اتسع حتى صار عرض دجلة دفعات وانه سار على حافته فرأى عليه قنطرة عظيمة فاراد أن يعبر فانبثق النهر من حوله فرأى شخصاً يناديه اتريد ان تعبر؟ فقال : نعم ، فمد يده حتى وصلت اليه واخذه فعبر به وهاله الفعل فسال من يكون هذا المتفضل بنجاته ؟ فقال صاحب اليد الكريمة : عليّ بن أبي طالب ، هذا الامر صائر اليك ، ويطول عمرك فيه ، فاحسن إلى ولدي وشيعتي .

وهذه الرؤيا الصحيحة او المخترعة تشهد بأن العلويين في ذلك العهد كان ينصب لهم ميزان ، وكان الخلفاء العباسيون يرون من السياسة ان يداروهم بالثناء على جدهم امير المؤمنين .

وكانت الظروف تسمح بعض السماح بأن يتطلع الشريف إلى الخلافة فقد كان له في ذات نفسه خصائص ترشحه لذلك المنصب : كان من اسباط الرسول ، وكان متفوقاً في العلوم النقلية والعقلية ، وكان جميل الوجه جداً ، بحيث استطاع بعض اساتذته ان يقول انه لم يستبح النظر إلى وجهه

إلا بعد ان اخضر شاربه ونبت عارضاه ، والجمال كان من الصفات المأثورة عن الرجل الذي اعز العرب في بقاع الارض، وخلد لغتهم على وجه الزمان الرجل الذي اسمه احمد ﷺ ، وحشرنا في زمرة اصفيائـــه يوم يقوم الحساب .

كان ذلك ايها السادة حال الشريف ، فتصوروا كيف جاز لرجل له مثل تلك الاماني ان يفضح نفسه بين الناس فيصرح بأنه من عبيد النحور والخدود والعيون ؟

ان ذلك لا يقع إلا في حالين اثنين : حال الشعر وحال الجنون .

وما اعتقد ان الشريف كان من المجانين ، فلم يبق إلا أن يكون من الشعراء .

وما ادعوكم الى الخروج على تقاليد المجتمع لتعربدوا في معـــاقرة الحسن عربدة الشريف ، لا ، وإنما ارجوكم ان ترحموه وتعطفوا عليه ، فهو من سلالة قلّ فيها الشعر جداً ، حتى صار من كنايات العرب ان يقال: فلان من نسل الرسول ، ويعنون انه لايصلح للانتساب الى الشعراء ، وما كان من الحق ان ينسلخ اسباط الرسول من الشاعرية ، وانما السبب في ذلك ان القبائل التي كانت ترشح نفسها للملك لم تكن ترى الشعر مما يليق بالملوك والخلفاء ، وذلك باب من القول فصلته في كتابِ (النثر الفني) فلا اعود اليه في هذا المساء ، ويكفي ان تذكروا ان الشاعرية لا تزكو إلا إن عاش الشاعر عيش البلبل يتنقل كيف يشاء بين أمالـــيد الافانين ، والتاهب للملك يوجب ان يصير الرجل من عبيد المجتمع ، فيعيش كرئيس الجمهورية الفرنسية لا يلقي اية كلمة في أي محفل إلا بعد استئذان .

واريد ايها السادة ان اقول ان الشريف الرضي لم يكن يصلح لغير

الشعر، واخشى ان اقول ان امارته للحج لم تكن إلا منحة يتفضل بها عليه الخلفاء العباسيون ليكون الفتى الذي اسمه الشريف الرضي خليفة للشيخ الذي اسمه ابو احمد الموسوي .

ولكن شاعرنا جمع بين المزيتين ، فكان أميراً للحج ، اميراً فقيهاً يقدم إلى الحجيج العراقي ما يبصره بالمشاعر والمناسك ، وكان شاعراً يتلهف على الحسن تلهف الظامىء إلى الورد الممنوع .

فان اختال علينا اهل الادب والذوق من اللاتينيين والسكسونيين والجرمانيين بأن عندهم قسيسين ورهباناً يدركون اسرار الادب الرفيع فسنقول ان عندنا « شيخاً » يؤدي الفرائض والنوافل ويقرأ الاوراد ، وهو مع ذلك شاعر حساس يفوق جوت وبيرون ولامرتين .

فان سالوا : ومن هو ذلك الشيخ الشاعر ؟

قلنا هو الشيخ الذي ذهب لأداء فريضة الحج فبهرته الصباحة فقال:

نظرتك نظرة بالخيف كانت
جلاء العين مني بل قذاها
ولم يك غير موقفنا فطارت
بكل قبيلة منا نواها
فواهاً كيف تجمعنا الليالي
وآها من تفرقنا وآها
واقسم بالوقوف على ألال
ومن شهد الجمار ومن رماها
واركان العتيق وبانييها
وزمزم والمقام ومن سقاها

لأنت النفس خالصة فان لم
تكونيها فأنت إذن مناها
نظرت ببطن مكة ام خشف
تبغم وهي ناشدة طلاها
واعجبني ملامح منك فيها
فقلت اخا القرينة ام تراها
فلولا انني رجل حرام
ضممت قرونها ولثمت فاها

تلكم إحدى طلائع الحجازيات ، فلنتناولها بشي من التحليل ولنبدأ بهذين البيتين :

ولم يك غير موقفنا فطارت
بكل قبيلة منا نواها
فواهاً كيف تجمعنا الليالي
وآهاً من تفرقنا وآها

فذلكم شاعر يطوف بالبيت فتقع عينه على غرائب الحسن ، ثم يكشف الواقع غشاوة هواه ، إذ يعرف انها لحظة لن تعود . ومن الذي يضمن للشاعر ان يسمح الزمان اللعوب بأن يردّ اليه هوى قلبه بعد عـــام او عامين ؟ وهل يمكن ان تسمح ظروف العيش لانسانة هاجرت في سبيل الحج من الاندلس او المغرب او مصر اوالشام ان تعود لتلك المواقف مرة ثانية ؟ من الذي يضمن لك حين تقع عينك على وجه جميل في بلد غريب ان تجود الايام برؤيته مرة ثانية ولو في عرض الطريق ؟ وهل تعرف المقادير قلب الشاعر فتعطف على جواه ؟

إن الشريف يؤلف المقاطع من قلبه الممزّق وهو يقول :

فواهاً كيف تجمعنا الليالي
وآها من تفرقنا وآها

وإن حاله لشبيه بحال صديق أعرفه بعض المعرفة، ولعله يلبس إهابي، وربما كانت معرفتي بذلك الصديق هي السر في اهتمامي بحجازيات الشريف وكان ذلك الصديق رأى فتاة ألمانية بقطار المترو في باريس ، فدعاها إلى معاقرة الحديث ساعة أو ساعتين ، فاعتذرت بانها على سفر ، ثم قالت وهي تواسيه :

On se verra , peut être !

وقد ركب صديقنا المترو ألف مرة ، وحج باريس مرات ، ولم يسمح الزمن بأن تقع عينه مرة ثانية على تلك العيون، فوا حر قلباه!

واتفق لذلك الصديق أن يدعوه فريق من أصفيائه إلى زيارة نورمنديا في كل عام مرة ، ولكن الزيارة الاولى لبساتين التفاح كانت في الوقت الذي فرغ فيه من دراسته بالسوربون ، فكانت أيامه بتلك البساتين أول العهد وآخر العهد . وقد رجع إلى فرنسة بعد ذلك ، ولكنه وا أسفاه كان يصل بعد (مايو) شهر الأزهار والرياحين ، وقد علمت ان شواغله في دنياه لن تسمح له أبداً برؤية نورمنديا في شهر مايو ، إلا أن يصبح من تقاليد الحكومات أن ترسل البعثات لتثقيف الذوق والوجدان !

يكفي هذا في الطواف حول هذين البيتين ، ونترك لأذواقكم درس الحسن في بقية القطعة ، وننتقل إلى الأبيات الآتية وقد قالها في مدينة الرسول في المحرم سنة ٣٩٤ :

وما كنت أدري الحب حتى تعرضت

عيون ظباء بالمدينة عين

فوالله ما أدرى الغداة رميننا

عن النبع أم عن أعين وجفون

بكل حشاً منا رمية نابل

قوي على الأحشاء غير أمين

جلون الحداق النجل وهي سقامنا

ووارين أجياداً وسود قرون

ولولا العيون النجل ما قادنا الهوى

لكل لبان واضح وجبين

يلجلجن قضبان البشام عشية

على ثغب من ريقهن معين

ترى برداً يعدى إلى القلب برده

فينقع من قبل المذاق بحين

تماسكت لما خالط اللب لحظها

وقد جن منه القلب أي جنون

وما كان إلا وقفة ثم لم تدع

دواعي النوى منهن غير ظنون

نصصت المطايا أبتغي رشد مذهبي

فاقلعن عني والغواية دوني

فما رأيكم في هذه الابيات ؟ قد تقولون إن فيها معاني مالوفة ، وهو كذلك ، ولكن هل تغيب عنكم قوة إحساسه بالمالوف من تلك المعاني ؟

أرجوكم أن ترجعوا إلى الفصل الذي أنشأناه عن المبتذل والطريف في الجزء الأول من كتاب النثر الفني لتعرفوا بوضوح كيف يكون المعنى مالوفاً ثم يكون صاحبه أشعر الناس لأنه أحسَّهُ أقوى إحساس .

ومن الذي ينكر قوة الشاعرية في هذا البيت :

يلجلجن قضبان البشام عشية
على ثغب من ريقهن معين

من الذي ينكر أن كلمة (يلجلجن) على ثقلها وقعت أجمل موقع في هذا البيت ؟

ومن الذي ينكر طرافة الخيال في هذا البيت :

ترى برداً يعدى إلى القلب برده
فينقع من قبل المذاق بحين

والمهم عندي هو النص على عبقرية السحر في هذا البيت :

وما كان إلا وقفة ثم لم تدع
دواعي النوى منهن غير ظنون

المهم ان تتصوروا مبلغ إحساسه بالوحشة لفقد الجمال ، وان تذكروا كيف يتشوق ويلتاع .

وهذه الأبيات :

تذكرت بين المازمين إلى منى غزالا رمى قلبي وراح سليما
لئن كنت أستحلي مواقع نبله فاني ألاقي غبـــهن أليما
أصاب حراماً ينشد الاجر حسبة
فما عاد ماجوراً وعاد أثيما
فلو كان قلبي بارئاً ما ألمته ولكن أسقاماً أصبن سقيما

إذا بلّ من داء أعادت له المها نكاساً إذا ما عاد عاد مقيما
يظنونني استطرفت داء من الهوى
وهيهات داء الحب كان قديما
قنصت بجمع شادنا فرحمته وأخفق قناص يكون رحيما
أأغدو مهيناً بالحبائل ساعة غزالا على قلبي الغداة كريما
تراءت لنا بالخيف نفح لطيمة سرت عنك إلا عبقة ونسيما
ولم أر مثل الماطلات عشية ذوات يسار ما قضين غريما

وهذه أبيات هادئة النفس، ولكن ما رأيكم في هذا البيت:

أصاب حراماً ينشد الاجر حسبة
فما عاد ماجوراً وعاد أثيما

ان الشريف كان يتوهم انه كحمام الحرم لا يطرد ولا يصاد، وكان يجهل ان الحرم يباح فيه صيد القلوب ! .. وهذا البيت:

قنصت بجمع شادناً فرحمته وأخفق قناص يكون رحيما

فهو يمثل الحسرة اللاذعة التي يحسها من يرحم الجمال، فيضيع منه الجمال.

وهذا البيت:

ولم أر مثل الماطلات عشية ذوات يسار ما قضين غريما

وهو يمثل لؤم الملاح: فهن يملكن الوفاء، ثم لا يقدمن غير الصدود. وفي منطق الشريف أن المليحة يقبح منها المطل لأنها موسرة، موسرة بالحسن والصباحة، والشاعر لا يطلب غير الانس بالحسن والصباحة، والجود لا يتلف المحاسن كما يتلف الاموال !

وما رأيكم في هــذه القصيدة التي سارت في المشرقين والمغربين وعارضها جمهور من الشعراء :

يا ظبية البان ترعى في خمائله ... ليهنك اليوم ان القلب مرعاك
الماء عندك مبذول لشاربه ... وليس يرويك إلا مدمع الباكي
هبت لنا من رياح الغور رائحة ... بعد الرقاد عرفناها برياك (١)
ثم انثنينا إذا ما هزنا طرب ... على الرحال تعللنا بذكراك
سهم أصاب وراميه بذي سلم ... من العراق لقد أبعدت مرماك
وعد لعينيك عندي ما وفيت به ... يا قرب ما كذبت عينيّ عيناك
حكت لحاظك ما في الريم من ملح (٢) ... يوم اللقــاء فكان الفضل للحاكي
كان طرفــك يوم الجزع يخبرنا ... بما طوى عنك من أسماء قتلاك
أنت النعيم لقلبي والعذاب له ... فما أمرك في قلبي وأحلاك
عندي رسائل شوق لست أذكرها ... لولا الرقيب لقد بلغتها فاك
سقى مني وليالي الخيف ما شربت ... من الغمام وحياها وحياك
إذ يلتقي كل ذي دين وماطله ... منا ويجتمع المشكوّ والشاكي

«١» الغور . اسم لعدة مواضع

«٢» الملح جمع ملحة بضم الميم وهو ما يستملح ويستطاب

لما غدا السرب يعطو بين أرحلنا
ما كان فيه غريم القلب إلاك[1]
هامت بك العين لم تتبع سواك هوى
من علم العين أن القلب يهواك
حتى دنا السرب ما أحييت من كمد
قتلي هواك ولا فاديت أسراك
يا حبذا نفحة مرت بفيك لنا ونطفة غمست فيها ثناياك
وحبذا وقفة والركب مغتفل على ثرى وخدت فيه مطاياك[2]
لو كانت اللمة السوداء من عددي
يوم الغميم لما أفلت أشراكي[3]

فماذا ترون في هذه القصيدة العصماء ؟ خبروني ماذا ترون فانها تسمو على كل تحليل.؟

أيكون السحر في أن يصبح القلب مرعى تلك الغزالة ؟ أيكون السحر في أن لا يرويها الماء المبذول وإنما يرويها الدمع المسفوح؟ أم يكون في أن يعرف العاشق مهب الريح بما تحمل عنها من نفحات ؟ وما هو ذلك السهم الذي يبعد مرماه فيصيب وهو بذي سلم أحشاء من في العراق؟

إن هذه من الحقائق النواصع، لو تعلمون ، فالعاشق تقوى عنده ذاكرة النظر ويتصور ملامح معشوقه على بعد الديار وعلى بعد السنين فتغزوه الملامح الفتانة في كل وقت ، كلما أدار أبصار فكره على ما رأت

«١» يعطو : من العطو وهو التناول ورفع الرأس واليدين «٢» مغتفل : من الغفلة والمراد بها الاغفاء . والوخد : السير «٣» الغميم موضع

عيناه في عالم الفتون . والجاهل هو الذي لا يعرف ذلك ، الجـــاهل هو المحروم من نعمة الخيال الوثاب الذي يمثل ما نأى وما بعد وكأنه مشاهد ملموس، والشعراء بهذه المنحة الربانية يتمتعون بالمحاسن في صور مختلفات ويشهدون المنظر الفاتن ألوف المرات ، على حين لا يراه الجاهل غير مرة واحدة، إن كان الجاهل يدرك ما يراه ، وأكثر أهل الارض جهلاء ، وإن ظفروا بأعظم الالقاب ، وعلى الله رزق الدواب .

ويحدثنا الشاعر عن وعد العيون ، وللعيون وعود .

فهل يسمح الشريف بأن نعترض على ما نسبه إلى محبوبته مـــن خلف الوعد ؟

هل يصدقنا الشريف إذا حكمنا بأن العيون عالم منفصل عن عالم القلوب ؟

هل يصدقنا الشريف إذا جزمنا بأن العين تعد وتخلف ، وتبرم وتنقض ، في غيبة القلب ؟

إن النـــاس يظنون منذ ألوف السنين ان العيون رسل القلوب ، فليعرفوا منذ اليوم ان العين خلق عجيب لا يعرف أسراره غير علام الغيوب .

ولعل الشريف فطن إلى ذلك حين استدرك فقال :

يا قرب ما كذبت عينيَّ عيناك

وحين قال :

كأن طرفك يوم الجزع يخبرنا بما طوى عنك من أسماء قتلاك

فهو يرى للعيون أعمالا يجهلها أهل العيون . والامر والله كذلك ، ولكن أكثر الناس لا يفقهون .

ويقول :

حكت لحاظك ما في الريم من ملح
يوم اللقاء فكان الفضل للحاكي

فيرينا ان الحلاوة في عيون النساء أمتع من الحلاوة في عيون الظباء والحق في هذه القضية ان عيون الغزلان في غاية من الروعة ،ولكنها محرومة من صفة أساسية في عيون الملاح ، وهي الافصاح ، أو ما يعبر عنه الفرنسيون بكلمة *Regard expressif* فعين الظبية تروعك ، ولكنها لا تحدثك ، أما عين المرأة فتروعك وتفضي اليك في لحظة واحدة بألف حديث وحديث ، ولعل الشريف قصد إلى ذلـــك حين قال : فكان الفضل للحاكي .

وانظروا كيف سجل مناسك الحج بهذين البيتين :

سقى مني وليالي الخيف ما شربت
من الغمام وحياها وحياك

إذ يلتقي كل ذي دين وماطله
منا ويجتمع المشكو والشاكي

فهل رأيتم أظرف من هذا الكلام ؟ وهل تدركون ما فيه من دقيق الاشارات ؟ اغفروا لي هذه الهفوة ، فما اتهمكم بالجهل ، والعياذ بالذوق ، وإنما أريد أن اهجم على الشريف فأقول انه كان يتخذ ايام الحج مواعيد غرام ، واخشى ان اقول انه لم يكن يفارق مناسك الحج إلا على ميعاد . وهذا يفسر حرصه على إمارة الحج بالأصالة عن نفسه او بالنيابة عن أبيه، ولا تستكثروا ان يحج الرجل ليرى امرأة يهواها ، او أن تحج المرأة لترى رجلا تهواه ، فقد كنا ننظم المواعيد في القطار بين ليون وباريس ، مواعيد لعام او عامين ، ثم نفي فنلتقي بعد عـــام أو عامين ، وللقلوب

غرائب لا تدركها العقول .

وما الذي يمنع من مجاراة أبي عمرو بن العـــلاء في الحكم بين الأعشى ولبيد ؟

أتذكرون ما قال أبو عمرو بن العلاء ؟

انه قالَ : لبيد رجل صالح ، والأعشى رجل شاعر

وكذلك أحكم بان الشريف رجل شاعر وليس برجل صالح .

وهل قلّ الصالحون في الدنيا حتى نشرفهم بالشريف ؟

إن الأغبياء يعدون بالالوف ، وألوف الالوف ، وإمارة الحج تولاها مئات ممن يحسنون التسبيح والتهليل ، فليكن فيهم رجل واحد يفهم أن الحج معرض من معارض الجمال في أمة قامت تقاليدها على الاستهانـــة بالجمال .

لتكن حجازيات الشريف هي الشاهد على أن ماضينا لم يكن كتلة من الجمود ، وإنما كان ماضي أمة حية تدرك دقائق الأحاسيس تأملوا هذه الصورة .

لما غدا السرب يعطو بين أرحلنا
ما كان فيه غريم القلب إلّاك
هامت بك العين لم تتبع سواك هوى
من علّم العين أن القلب يهواك

ثم انظروا كيف يضل المرء بين الحسان وليس له فيهن إلا محبوبة واحدة ، وذلك أظرف أنواع الضلال .

وتاملوا قوله :

وحبذا وقفة والركب مغتفل   على ثرى وخدت فيه مطاياك

فهذا البيت يشهد بأن شاعرنا كان ينتهب الفرص التي يغفو فيها الركب ليمتع القلب اليقظ بما يوحي الهوى من انتهاب القبلات .

...

وما رأيكم في هذه الأبيات :

أيها الرائح المغـــذ تحمل حاجة للمعذب المشتاق [1]
اقر عني السلام أهلي المصلى [2] فبلاغ السلام بعض التلاقي [3]
وإذا ما مررت بالخيف فاشهد ان قلبي اليه بالأشواق
وإذا ما سئلت عني فقل نضـ و هوى ما أظنه اليوم باقي
ضاع قلبي فانشده لي بين جمع ومني عند بعض تلك الحداق
وابك عني فطالما كنت من قبـ ل أعير الدموع للعشاق

ما رأيكم في إحساس من يحكم بأن « بلاغ السلام بعض التلاقي » ما رأيكم فيمن يشعر بالانس حين يمر بخاطر من يهواه ؟

والشاعر واثق بأن هناك قلوباً تسأل عنه حين يغيب ، وما أسعد من يشعر بأن في الدنيا قلوباً تسأل عنه حين يغيب ! وشاعرنا لا تفارقه السيطرة العلوية فهو يحب أن يبكيه الأحباب فيوصي الرسول بأن يحدثهم أنـــه أصبح في حكم الفانين عساه يظفر منهم بزفرة أو شهقة أو أنين .

وما هذا البيت :

ضاع قلبي فانشده لي بين جمع ومني عند بعض تلك الحداق

أتعرفون كيف تضيع القلوب ، وكيف ينشدها الناشدون ؟؟ أتحسون المعنى الملفوف في هذه الكلمة « عند بعض تلك الحداق » أتفهمون من هذا

«١» المغذ : المسرع «٢» المصلى : اسم موضع

«٣» في الديوان (وبلاغ السلام بعد التلاقي) والصواب ما أثبتناه

ان الرجل كان له في الحجاز هوى خاص ؟

وهذا البيت :

وابك عني فطالما كنت من قبـ ـل أعير الدموع للعشاق

أنت كنت تعير الدموع للعشاق ؟

ليت العباس بن الاحنف كان رآك قبل أن يقول :

نزف البكاء دموع عينك فاستعر
عيناً لغيرك دمعها مدرار
من ذا يعيرك عينه تبكي بها أرأيت عيناً للدموع تعار

لقد بكى العشاق عنك، وبكوا ثم بكوا ، فان لم تصدق فانصت من عالم الغيب لترى كيف يسمع أهل العراق أبياتك هذه مرات في كل يوم من حنجرة أم كلثوم .

...

وهذه الابيات :

حيِّ بين النقـــا و بين المصلى وقفات الركائب الأنضاء [1]
ورواح الحجيج ليلة جمع ويجمع مجامع الأهواء
وتذكر عني مناخ مطيي باعالي منى ومرسى خبائي [2]
و تعمد ذكري إذا كنت بالخيـ ـف لظبي من بعض تلك الظباء
قل له هل تراك تذكر ما كا ن بباب القبيبة الحمراء
قال لي صاحبي غداة التقينا نتشاكي حر القلوب الظماء
كنت خبرتني بانك في الوجد عقيدي وان داءك دائي

(١) الانضاء : المهازيل

(٢) مرسى من أرسى إذا أقام ، ومنه (مجراها ومرساها) .

ما ترى النفر والتحمل للبين فماذا انتظارنا للبكاء[1] :

لم يقلها حتى انثنيت لما بي أتلقى دمعي بفضل ردائي

إن الشاعر يحس معنى الحياة في وقفات الركائب الأنضاء ، لأن السفر لا ينضى الركائب إلا بعد أن تصل بالماشق إلى هواه ، فهو يطرب لو قفاتها في قرار واطمئنان .

والشاعر يوصي رفيقه بأن يتذكر عنه مناخ مطاياه ، وتلك لفتة شعرية لا يدركها إلا الاقلون .

وكما حدثنا عن « بعض تلك الحداق » يحدثنا عن « بعض تلك الظباء » فيقول :

وتعمد ذكري إذا كنت بالخيـ ـف لظبي من بعض تلك الظباء

قل له هل تراك تذكر ما كا ن بباب القبيبة الحمراء

وعبارة « ما كان » عبارة لطيفة يوشيها التوق ، وهي أبرع من عبارة ابن المعتز إذ يقول :

وكان ما كان مما لست أذكره فظن خيراً ولا تسال عن الخبر

لأن ابن المعتز أحاط عبارته بالشبهات .

أما الابيات الاخيرة فهي تشعركم بأن الشريف لم يكن يودع مناسك الحج بالتلبية والتكبير ، وإنما كان يودعها بزفرة الملتاع على ما يفارق من خدود وعيون .

ايها السادة

ما رأيكم في هذا القصيد المرقص :

---

(١) النفر هو تفرق الحاج عن منى

مـــن معيد لي أيا مي بجزع السمرات[1]
وليـــاليّ بجمع ومنى والجمرات
وظباء حاليات كظباء عاطلات
رائحات في جلابيـ ـب الدجا مختمرات[2]
راميات بالعيون النجـ ـل قبل الحصيات
ألعقر القلب راحوا أم لعقر البدنات
كيف أودعت فؤادي أعينا غير ثقات
أيها القانص ما أحسنـ ـت صيد الظبيات
فاتك السرب وما زوّ دت غير الحسرات
يا وقوفاً ما وقفـ ـن في ظلال السلمات[3]
موقفاً يجمع فتيا ن الهوى والفتيات
نتشاكي ما عنانا بكلام العبرات
نظر يشغل منا كل عين بقذاة
كم نأى بالنفر عنا من غزال ومهاة
آه من جيد إلى الدا ر كثير اللفتات
وغرام غير ماض بلقاء غير آت
فسقى بطن منى والخـ ـيف صوب الغاديات
وزماناً نائم العذّا ل مأمون الوشاة
في ليال كاللآلي بالغواني مقمرات

---

(١) السمرات بضم الميم جمع سمرة وهو اسم موضع ، والسمر في الاصل ضرب من الشجر (٢) المختمرات لابسات الخمار
(٣) السلمات جمع سلمة بالتحريك وهي ضرب من الشجر .

غرست عندي غرس الشوق مرور الجناة
أين راق لغرامي وطبيب لشكاتي

ما رأيكم فيمن يرى أن يسمي هذه القصيدة « أنشودة الحجيج » ؟

لا تعجبوا من هذا الاقتراح فمواسم الحج تحتاج إلى ضروب من الاناشيد، مواسم الحج في شوق إلى من يرجعها إلى عهدها الأول يوم كانت أقدم ما عرف الناس من المعارض الدولية ، مواسم الحج تحتاج إلى شاعر كالشريف يفرق بين عقر البدنات وعقر القلوب ، وتحتاج إلى شاعر يعلم الناس أدب الصيد فيقول :

أيها القانص ما أحسنـ ـت صيد الظبيات
فاتك السرب وما زوّ دت غير الحسرات

وتتشوف إلى من يتلهف على أيامها فيقول :

آه من جيد إلى الدا ر كثير اللفتات
وغرام غير ماض بلقاء غير آت

واعظم الحسرات ان تتشوف إلى أنس لن يعود، ويرحم الله أرباب القلوب !

...

وهذه القصيدة التي تسجل لوعة القلب إلى ما شهد في طريق الحج من أسباب الفتون :

خذي نفسي يا ريح من جانب الحمى
فلاقى بها ليلا نسيم ربا نجد
فان بذاك الحيّ إلفا عهدته
وبالرغم مني أن يطول به عهدي

ولولا تداوي القلب من ألم الجوى
بذكر تلاقينا قضيت من الوجد
ويا صاحبيَّ اليوم عوجا لتسألا
ركيباً من الغورين أنضاؤهم تخدي[1]
عن الحيّ بالجرعاء جرعاء مالــك
هل ارتبعوا واخضر واديهم بعدي
كأن بعيني بعدهم عائر القذى[2]
إذا أنا لم أنظر إلى العـلم الفرد
شممت بنجد شيحة حاجرية
فأمطرتها دمعي وأفرشتها خدي
ذكرت بها ريا الحبيب على النوى
وهيهات ذا يا بعــد بينهما عندي
وإني لمجلوب لي الشوق كلما تنفس شاك أو تألم ذو وجد
تعرض رسل الشوق والركب هاجد
فتوقظني مـــن بين نوامهم وحدي
فقلت لأصحابي ألا تتزافروا رويدكم إن الهوى داؤه يعدي
ومـــا شرب العشاق إلا بقيتي
ولا وردوا في الحب إلا على وردي
والقصيدة واضحة لا تحتاج إلى من يدل على ما فيها من محاسن ،

«١» الركيب مصغر ركب ، وتخدي تسرع «٢» العائر : كل مـــا اعل العين ، وفي الديوان (غائر) بالغين المعجمة وهو تحريف

ولكن لا بد من النص على هذه العبارة :

هل ارتبعوا واخضر واديهم بعدي

فانها تصور فهمه لمعاني السعادة في البوادي ، وقد يكون في الارتباع والاخضرار إشارة إلى ما يتخوفه من أن يأنس الاحباب بغير هواه بعد الفراق .

ثم انظروا احساسه بالفروسية في الحب اذ يقول :

تعرّض رسل الشوق والركب هاجد
فتوقظني من بين نوامهم وحدي

ومـــا شرب العشاق الا بقيتي
ولا وردوا في الحب الا على وردي

وحدثوني عن شعوركم بهذا المعنى الطريف ، فذلكم شاعر يرى أن أطياف الشوق تعرفه بين الركب بسيماه ، ويعتقد ان العشاق لا يردون في الحب الا على ورده ولا يشربون الا بقاياه ، والعشاق كالأنبياء لاتجود الدنيا بهم في كل يوم ، وانما تسمح بهم من جيل الى اجيال :

...

وما رأيكم في هذه الابيات :

تحمّل جيراننا عـــن منى ... وقالوا النقا بيننا موعد
وهل نافع قول ذي غـــلة ... وقد بعد الركب لا يبعدوا
تنادوا بأن التنائي غداً ... لك السوء من طالع يا غد
فلله ما جمع المأزما ... ن وجمع لقلبي والمسجد
يضاع فينشد قعب الغبوق ... وقلبي يضاع ولا ينشد [1]

---

(1) القعب بفتح فسكون هو القدح الضخم

وغيداء من ماطلات الديون   لهـــا بالحمى زمن اغيد
تريع كما التفتت ظبـــية   بذي البان عنّ لها المورد[1]
نظرت وهيهات من ناظريك   ظباء تهامة يا منجد
ويا ربما والهوى ضلة   ترى العين ما لا تنال اليد

ألا ترون هذه الحسرة الدامية ؟ ألا تحسون اللوعة في هذا البيت :

تنادوا بأن التنائي غداً   لك السوء من طالع يا غد !

وأي لوعة آلم وأوجع من لوعة المفارق الذي لا يعرف متى يعود ؟ أي لوعة آلم وأوجع من لوعـــة من يودع ناساً لا يدري أيلقاهم مرة ثانية أم يكون أنسه بهم آخر العهد في دنياه ؟

وهذا البيت :

ويا ربما والهوى ضلة   ترى العين ما لا تنال اليد

وهل في الدنيا أفظع وأشنع من أن ترى العين ما لا تنال اليد ؟ إن هذا أصل الشقاق والنزاع بين طوائف الانسان والحيوان ، وكل شقاء في عالم الذوق والوجدان يرجع إلى أصل واحـد : هو أن ترى ولا تملـك . وهل يعرف أحد حقيقة اللوعـــة في قلب الشاعر الذي يرى امرأة جميلة وهو يعرف أن لن تنالها يده ، وأنها مع ذلك قد تكون ملكا لرجل سخيف لا يدرك أسرار الجمال ؟

نترك هذا الشطط و ننتقل إلى هذه الأبيات :

ألا يا ليالي الخيف هل يرجع الهوى
اليكن لي لا جازكنّ ندى القطر

---

(1) تريع : ترجع .

فيا دين قلبي من ثلاث على منى
مضين ولم يبقين غير جوى الذكر
ورامين وهناً بالجمار وإنما رموا بين أحشاء المحبين بالجمر
رموا لا يبالون الحشا وتروّحوا
خليين والرامي يصيب ولا يدري
وقالوا غداً ميعادنا النفر عن منى
وما سرني أن اللقاء مع النفر
ويا بؤس للقرب الذي لا نذوقه
سوى ساعة ثم البعاد مدى الدهر
فيا صاحبي إن تعط صبراً فانني
نزعت يديّ اليوم من طاعة الصبر
وإن كنت لم تدر البكا قبل هذه
فميعاد دمع العين منقلب السفر

وهذا شعر واضح ، ولكن لا بدّ من التذكير ببعض المحاسن ، كأن ننص على الخيال في هذا البيت :

ورامين وهناً بالجمار وإنما رموا بين أحشاء المحبين بالجمر

وما هو بخيال ، وإنما هو حقيقة تراها العيون ، ومن الذي ينكر أنه يتمنى أن يكون شيطاناً ترجمه بعض الأنامل الرقاق ؟ فهل يستكثر على الشريف أن يقول أن بعض الراميات لا ترمي بالجمار وإنما ترمي الأحشاء بالجمر المشبوب ؟

ما هذه البدعة الطريفة التي تفرد بها الحج الاسلامي ؟ ما هذا التلطف الظريف الذي شرعه الاسلام وهو يوجب على المرأة المليحة أن تمـــد

معصمها لترمي الجمار ؟

أما خطر ببال أحد الفقهاء أن يتصور أن المعصم الجميل قد يكون أفتن وأخطر من الشيطان الذي يرجمه الحجاج؟

ليت الدهر يسمح بان نرى مرة كيف ينعم صديقنا الشيطان وهو يتلقى الرميات من أيدي الملاح ! إن حظه لو تعلمون عظيم !

وهذا البيت :

رموا لا يبالون الحشا وتروّحوا

خليين والرامي يصيب ولا يدري

والمهم هو النص على أن الرامي قد يصيب وهو لا يدري ، ذلك منطق الشريف ! والأغرب منه أن ننص على أن الرامي قد يقصد هدفاً واحداً فيصيب هدفين !

وهذا البيت :

ويا بؤس للقرب الذي لا نذوقه

سوى ساعة ثم البعاد مدى الدهر

فذلـــك هو المعنى الاصيل الذي يدور حوله الشريف في سائر الحجازيات .

...

وهذه الأبيات وقد قالها عند دخول الحجيج إلى مدينة السلام في شهر صفر سنة ٣٩٥ .

عارضا بي ركب الحجاز أسائله متى عهده بسكان سلع[1]
واستملاحديث من سكن الخيف ولا تكتباه إلا بدمعي
فاتني أن أرى الديار بطرفي
فلعلي أرى الديار بسمعي

هل ترون؟ ألا تحسون لوعة المشتاق إلى أنفاس الظباء بالحجاز ؟ ذلكم شاعر فاته أن يحج فلم يبق أمامه إلا أن يتنسم أرواح القادمين ليرى الديار بأذنيه وقد فاته أن يراها بعينيه ؟ والعاشق يستبيح كل شيء حتى الانس بالخيال ، وهو والله مظلوم فقد ينشد القدح الضائع ولا ينشد الفؤاد المفقود . . . وهذه الأبيات :

إني علقت علي منى لمياء يقتلني لماها
راحت مع الغزلان قد لعبت بقلبي ما كفاها
تبغي الثواب فمهجتي هذي القريحة من رماها
وقف الهوى بي عندها وسرت بقلبي مقلتاها
بردت عليّ كأنما ظل الغمامة عارضاها

«١» معارضة الركب هي السير حيال الركب ، وسلع بفتح اوله وسكون ثانيه جبل او موضع بقرب المدينة تتصل به قصة وجدانية فقد سمع يزيد بن عبد الملك جاريته تغني هذه الابيات :

لعمرك انني لأحب سلعا لرؤيتها ومن بجوار سلع
تقر بقربه عيني واني لأخشى ان تكون تريد فجعي
حلفت برب مكة والمصلى وأيدي السابحات غداة جمع
لأنت على التنائي فاعلميه احب إلي من بصري وسمعي

ثم رآها تتنفس الصعداء فقال . لم تتنفسين ؟ والله لو أردته لفعلته حجراً حجراً . فقالت . وما أصنع به ؟ انما اردت ساكنيه !

شمس أقبّل جيدها يوم النوى وأجل فاها
وأذود قلباً ظامئاً لو قيل وردك ما عداها
ولو استطاع لقد جرى مجرى الوشاح على حشاها
يا يوم مفترق الرفا ق ترى تعود لملتقاها
قالت سيطرقك الخيا ل من العقيق على نواها
فعدى بطيفك مقــلة إن غبت تطمع في كراها
إني شربت من الهوى حمراء صرّف ساقياها
يا سرحة بالقــاع لم يبلل بغير دمي ثراها
ممنوعة لا ظلها يدنو إليّ ولا جناها
أكذا تذوب عليكمو نفسي وما بلغت مناها ؟
أين الوجوه أحبها وأودّ لو أني فداهــا
أمسي لها متفقداً في العائدين ولا أراها
واهاً ولولا أن يلو م اللائمون لقلت آهـا

ما رأيكم في هذا الشعر المرقص ؟ وما هي التعابير التي تفصح عما فيه من فتون ؟ ما رأيكم في العذوبة التي تتموّج بين ألفــاظه ومعانيه كما يتموّج البريق في الثنايا العذاب ؟

حدثوني عند أي بيت نقف لنحدد غرائب البيان ؟

انظروا هذا البيت :

إني علقت عــلي منى لمياء يقتلني لماها

تجدوا المعنى قديماً مبذولا تناهبه مئات الشعراء . ولكن ألا توافقون على أن الشريف أداه تادية رشيقة حتى كاد يصبح من المبتكرات ؟ ....

وهذا البيت :

راحت مع الغزلان قد   لعبت بقلبي ما كفاها

وهو أيضاً معنى قديم ، ولكن هل تدركون الصورة الشعرية التي تتمثل في قوله :

لعبت بقلبي ما كفاها

وهو يريد انها لم ترح مع الغزلان إلا بعد أن شبعت لعباً بذلك القلب الخفاق ، وهل تشبع الظباء من اللعب بالقلوب !

وهذا البيت :

وقف الهوى بي عندها   وسرت بقلبي مقلتاها

فقد يمكن رجع صدره إلى قول دعبل :

وقف الهوى بي حيث أنت فليس لي

متأخر عنه ولا متقدم

ولكن من الذى يجهل قيمة اللطف في هذه الشطرة :

وسرت بقلبي مقلتاها

وهذا البيت :

بردت عليّ كأنما   ظل الغمامة عارضاها

والبرد كلمة لها في التشبيب مدلول خاص ، وهي تشبه الكلمة الفرنسية Fraicheur

وهذا البيت :

شمس أقبّل جيدها   يوم النوى وأجل فاها

هو أيضاً معنى قديم ، ولكن لا يكذب من يقول إنه من مبتكرات الشريف .

وهذا البيت :

وأذود قلبـــاً ظامئاً لو قيل وردك ما عداها

وما أحسبكم تطالبونني بالتنبيه على ما في هذا البيت البارع مـــن جمال ، فاني أخشى أن تفسده الشروح ، وانظروا كيف عقب عليه بهذا البيت :

ولو استطاع لقد جرى مجرى الوشاح على حشاها

وأحب أيها السادة أن تتاملوا الحسن في هذه الابيات :

يا سرحة بالقـــاع لم يبلل بغير دمي ثراها
ممنوعة لا ظلـها يدنو إليَّ ولا جناهـــا
أكذا تذوب عليكمو نفسي وما بلغت مناها
أين الوجوه أحبها وأود لو أني فداها
أمسي لهـــا متفقداً في العائدين ولا أراها
واهاً ولولا أن يلو م اللائمون لقلت آها

أتدركون قيمة العذوبة في هذا القصيد ؟

أعتذر مرة ثانية وثالثة ورابعة عـن الارتياب في أذواقكم ، فمثلي لا يسيء الظن بأذواق أهل العراق ، وإنما أعجب حين أرى من يتهمني بالتعصب للشريف ويطالبني بكشف ما عنده من عيوب ، وأنـــا والله مستعد لكشف عيوب الشريف ، ولكن متى ؟ بعد أن يعرف الناس محاسن الشريف .

أليس من العجب العاجب أن لا يعرف هذه القصيدة مغن في تونس أو مراكش أو الجزائر أو صنعاء أو مكة أو المدينة أو دمشق أو بيروت أو القاهرة أو بغداد ، وما إلى أولئك من الحواضر العربية ؟

لو كانت هذه القصيدة العذبة مما نظم ميسيه أو بيرون أو جوت

لكانت على جميع الألسنه في بلاد الفرنسيس والانجليز والالمان، ولكنها وا أسفاه من نظم شاعر يجهـــله أكثر العرب وينكره بعض أهله في العراق .

أنا لا أقول بان الشريف ابتكر جميع معانيه، فلأكثرها اصول عند أسلافه من الشعراء ، ولكني مع ذلك أقول بأن جميع معانيه من المبتكرات لأنه يحسها باقوى وأعنف ما تتصورون من الاحساس، وقد دعوتكم من قبل إلى مراجعة كتاب النثر الفني لتروا كلمة الحق والصدق في المبتذل والطريف ، ولتعرفوا أني في إنصاف هذا الشاعر لم أكن من العابثين .

وهل أستطيع مرة ثالثة أن أدلكم على الحسن في هذين البيتين :

أين الوجوه أحبـــها وأودّ لو اني فداها
أمسى لها متفقداً في العائدين ولا أراها

إن المعنى فيهما ماخوذ من قول بعض الشعراء .

ما أقبح الناس في عيني وأسمجهم
إذا نظرت فلم ابصرك في الناس

ولكن الصورة مختلفة كل الاختلاف .

وأنا أيها السادة أقدر منكم على تجريح الشعراء، لأني قضيت عشرين سنة أو تزيد في تعقب الالفاظ النثرية ، والاخيلة الشعرية ، وأستطيع أن أهجم على شاعر مثل المتنبي فاثبت ان معانيه كلها من الحديث المعاد ، ولكني لو فعلت لكنت من الظالمين ، لأني أعرف ان المتنبي أحس معاني شعره أصدق إحساس ، وأومن بانه لم يكن يغير على معـــاني سواه ، وإنما كان يفترع المعاني افتراعاً ، وإن أنس بها من قبله كثير من الشعراء .

وهل تظنونني أجبن عن مصارحتكم بكلمة العدل في هذه القضية وأنا الذي جبهت بها أساتذتي في السوربون في محضر جمهور يعد بالمئات ؟

هل تظنونني أجبن عن التصريح بان النقاد القدماء كانوا يلعبون حين أتعبوا أنفسهم وأتعبوا قراءهم فيما سموه بالسرقات الشعرية ؟

لقد آن لنا أن نقيم النقد الادبي على قواعد علم النفس ، وأظنني وصلت في ذلك إلى بعض ما أريد.

ثم ننتقل إلى هذه الابيات :

يا رفيقيَّ قفا نضويكما   بين أعلام النقا والمنحنى
وانشدا قلبي فقد ضيعته   باختياري بين جمع ومنى
عارضا السرب فان كان فتى   بالعيون النجل يقضي فأنا
إن من شاط على ألحاظها   ضعف من شاط على طول القنا[1]
تجرح الاعين فينا والطلى   قاتل الله الطلى والأعينا[2]
ثم كانت بقباء وقفة   ضمنت للشوق قلبا ضمنا[3]
وحديث كان من لذته   احد يصغي الينا أذنا[4]
غادروني جسداً تظهره   لهم الشكوى ويخفيه الضنى
حبذا منكم خيال طارق   مرَّ بالحيِّ ولم يلمم بنا
باخل بخل الذي أرسله   سئل النيل وما جاد لنا
سرحة أعجلها البين وما   لبث[5] الظل ولا ذيق الجنى

«١» شاط . احترق وهلك «٢» الطلى بالضم . الاعناق واصولها ، المفرد طلية او طلاة «٣» ضمن فعل ماض من الضمنة بالضم وهي المرض «٤» احد بضمتين اسم جبل كانت به موقعة مشهورة جداً «٥» في الديوان (لبس) وهو تحريف .

ما رأت عيني مـــذ فارقتكم يا نزول الحيّ شيئاً حسنا

وهذه أبيات تدركون ما فيها من روعة الخيال ، ويكفي أن نقف عند هذا البيت :

وحديث كان من لذته أحد يصغي الينا أذنا

وليس من العجيب أن تصغى الجبال لأحاديث المحبين ، فقد صح لأحد شعرائنا أن يقول :

وقف النـــجم وألقى باله ليعدّ اللمح من قلبي وقلبك
ويح هذا النجم مما هاله في ضمير الليل من حبي وحبك

..

على أن صبابات الشريف في مواسم الحج ، وفي طريق الحج ، ولم تكن كلها من الوجد العابر الذي يمر مرور الطيف ولا يبقى مـــن نعيمه غير العقابيل ، فقد حدثنا أنه طاف بمعاني الوصل ، إذ قال :

يا ليلة السفح ألاّ عدت ثانيه سقى زمانك هطال من الديم[1]
ماض من العيش لو يفدى بذلت له
كرائم المال من خيل ومن نعم[2]
لم أقض منك لبانات ظفرت بها
فهل لي اليوم إلا زفرة الندم
فليت عهدك إذ لم يبق لي أبداً
لم يبق عندي عقابيلا من السقم[3]

---

(١) ألاّ : كلمة تحضيض مثل هلاّ (٢) النعم بالتحريك وقد تسكن عينه : الابل والشاء ، أو هو خاص الابل ، والجمع أنعام (٣) العقابيل : بقايا العلة والعداوة والعشق ، وما يخرج على الشفة غبّ الحمى ، والشدائد . واحد الكل عقبولة وعقبول بضم العين ، وهو ذو عقابيل ، أي شرير .

تعجبوا من تمنى القلب مؤلمه   وما دروا أنه خلو من الألم
ردّوا عليّ لياليّ التي سلفت   لم أنسهن ولا بالعهد من قدم
أقول للآئم المهدي ملامته
ذق الهوى وإن استطعت الملام لم[1]
وظبية من ظباء الانس عاطلة
تستوقف العين بين الخمص والهضم[2]
لو أنها بفناء البيت سانحة
لصدتها وابتدعت الصيد في الحرم
قدرت منها بلا رقبى ولا حـذر
على الذي نام عـن ليلى ولم أنم
بتنا ضجيعين في ثوبي هوى وتقى
يلفنا الشوق مـن فرع إلى قدم
وأمست الريح كالغيرى تجـاذبنا
على الكثيب فضول الريط واللمم[3]
يشي بنا الطيب أحياناً وآونة   يضيئنا البرق مجتازاً على إضم[4]
وبات بارق ذاك الثغر يوضح لي   مواقع اللثم في داج من الظلم
وبيننا عفة بايعتها بيدي   على الوفاء بها والرعي للذمم

«١» لم يثبت الفاء في جواب الشرط للضرورة «٢» الخمص : ضمور البطن ، والهضم بالتحريك لطف الكشح ، والكشح ما بين الخاصرة الى الضلع الخلف .
«٣» الريط : الثياب ، واللمم جمع لمة بالكسر ، وهي الشعر المجاوز شحمة الأذن ، والمعنى ان الريح كانت تداعب العاشقين بمجاذبة الشعر والثياب
«٤» اضم على وزن عنب : جبل ، والوادي الذي فيه المدينة النبوية يسمى أسفله إضم .

يولّع الطلّ بردينا وقد نسمت
روبحة الفجر بين الضال والسلم[1]
وأكتم الصبح عنها وهي غافلة
حتى تكلم عصفور على علم[2]
فقمت أنفض برداً ما تعلقه
غير العفاف وراء الغيب والكرم
وألمستني وقد جدّ الوداع بنا كفا تشير بقضبان من العنم[3]
والثمتني ثغراً ما عدلت به
أرى الجنى ببنات الوابل الرذم[4]
ثم انثنينا وقد رابت ظواهرنا وفي بواطننا بعد من التهم
يا حبذا لمّة بالرمل ثانية[5] ووقفة ببيوت الحيّ من أمم[6]
وحبذا نهلة من فيك باردة يعدي على حر قلبي بردها بفمي
دين عليك فان تقضيه أحي به وأن أبيت تقاضينا إلى حكم
عجبت من باخل عني بريقته وقد بذلت له دون الأنام دمي
ما ساعفتني الليالي بعد بينهم الا بكيت ليالينا بذي سلم
ولا استجدّ فؤادي في الزمان هوى
إذا ذكرت هوى أيامنا القدم

«١» ولع الطل البرد : رقمه ، والضال والسلم مما تنبت البادية
«٢» المراد بالعلم – بالتحريك – المكان المرتفع «٣» العنم بالتحريك : شجرة حجازية لها ثمرة حمراء يشبه بها البنان المخضوب «٤» المراد من أري الجنى عصير الفواكه ممزوجاً بماء الغيث . والوابل : المطر . والراذم : المتدفق .
«٥» اللمة بالفتح هي المرة من اللمام ، أي المرور «٦» من امم – بالتحريك – أي من قرب .

لا تطلبنّ لي الأبدال بعدهم فان قلبي لا يرضى بغيرهم

والحسرات في هذه القصيدة حسرات شاعر، وهي أقوى من حسرات André Chénier على الجدائل المتموّجة ، والاقدام العـــارية . وصورة الشاعر مع محبوبته فوق الرمل وبين وشاية الطيب والبرق ، وفي هداية الثغر البراق ، وفي حراسة العفاف ، صورة جذابة جداً ، وصورة التوديع الذي عاناه بعد ذلك أرق وأظرف ، وأسف الشاعر على تلك الليلة يذيب القلوب .

والفتوة في صدر الشريف هي التي أنطقته بهذه المعاني ، فمن المؤكد أن الدنيا لعهده لم تكن تخلو مـــن أغبياء يصعب عليهم أن يدركوا كيف يصح العفاف لمن يبيتان ضجيعين ، هو رجل خلق للشعر والخيال لا يصلح للنجاح في المعترك السياسي ، ولكنه يؤدي لوطنه وقومه خدمات يعجز عنها السياسيون، لأنه يخلق ثقافة الذوق ، ويروض النفوس على الاريحية ، ويغرس فيها الشوق إلى حب الحياة .

ومن الواضح أن حجازيات الشريف لا تصلح دستوراً للحجاج ، فقد يجب أن تكون لهم شواغل غير التطلع إلى النحور والمباسم والعيون، ولكن هل يدّعي الشاعر أنه يضع الشرائع للناس ؟ وهل للشاعر شريعة واضحة الرسوم حتى يفكر في سنّ الشرائع ؟

إن الشعراء كالأنهار يحلو لهم الاعوجاج ، أما ترون نهر دجلة يمضي يمنة ثم يرجع يسرة؟ أما ترون نهر السين كيف يسير عـــلى غير هدى؟ وبفضل ذلك الاعوجاج حسنت مواقع المدائن التي تقوم على شواطىء الانهار والبحـــار ، ولو كان شاطىء البحر الذي تقوم عليه مدينـــة الاسكندرية يعرف الاعتدال لكان من المستحيل أن تظفر الاسكندرية

بذلك الموقع البديع الذي يمكن الناظر من أن يراها في الليل وهي كالعقد على نحر المحيط ، وشواطىء الاسكندرية لم تجمل إلا بفضل ذلك الاعوجاج .

كنت أستطيع أن أناقش الشريف فيما ادعاه من العفاف ، فأعيد التي جاءت في الجزء الثاني من كتاب البدائع؟ كلمة استاذنا الدكتور منصور فهمي الذي يرى أن الشهوة قد تخرج من العيون .

ولكن ما رأيكم في أن الله عز شانه لم يضع عقوبة للشهوة التي تخرج من العيون ؟

أنكون أغير من الله ؟

إن الشريف رجل شاعر ، ولا يعيبه أن لا يكون من الصالحين ، فان الصلاح المطلق لا يتم إلا لأهل البلادة والجهل .

كم كنت أتمنى أن أحاسب الشريف على ما ادعاه لنفسه من العفاف ، ثم صدني عن ذلك شعوري بانه لم يكن منافقاً ، وأنا رجل يرى الكفر أهون من النفاق .

أيها السادة

لقد طال القول في حجازيات الشريف، وما نريد الاستقصاء ، فلنختم البحث بقصيدته اليائية وقد قالها قبل أن يموت بأربع سنين ، قالها عند توجه الناس إلى الحج في ذي القعدة من سنه ٤٠٠ وهو يتلهف على مواقع عينيه في أرض الحجيج .

أقول لركب رائحين لعلكم
تحلون من بعدي العقيق اليمانيا

خذوا نظرة مني فلاقوا بها الحمى
ونجداً وكثبان اللوى والمطاليا
ومروا على أبيات حيٍّ برامة فقولوا الديغ يبتغي اليوم راقيا
عدمت دوائي بالعراق فربما وجدتم بنجد لي طبيباً مداويا
وقولوا لجيران على الخيف من منى
تراكم من استبدلتمو بجواريا
ومن حل ذاك الشعب[1] بعدي وراشقت
لواحظه تلك الظباء الجوازيا[2]
ومن ورد الماء الذي كنت وارداً
به ورعى الروض الذي كنت راعيا
فوا لهفتي كم لي علـــى الحيّ شهقة
تذوب عليها قطعة من فؤاديا[3]
صفا العيش من بعدي لحيٍّ على النقا
حلفت لهم لا أقرب الماء صافيا
فيا جبل الريان إن تعر منهمو
فاني ساكسوك الدموع الجواريا
ويا قرب ما أنكرتم العهـــد بيننا
نسيتم ومـــا استودعتم الود ناسيا
أأنكرتمو تسليمنا ليلة النقا وموقفنا نرمي الجمار لياليا

«١» الشعب بالكسر : الطريق في الجبل ، ومسيل الماء في بطن أرض ، أو ما انفرج بين الجبلين «٢» الظباء الجوازي التي يغنيها العشب عن الماء
«٣» ارجع الى تحليل هذه المعاني في كتاب (مدامع العشاق)

عشية جاراني بعينيه شادن
حديث النوى حتى رمى بي المراميا
رمى مقتلي من بين سجفي غبيطه[1]
فيا رامياً لا مسّك السوء راميا
فيـــا ليتني لم أعل نشزاً اليكمو
حراماً ولم أهبط من الأرض واديا
ولم أدر ما جمع وما جمرتا منى ولم ألق في اللاقين حياً يمانيا
ويا ويح قلبي كيف زايدت في مهاً[2]
بذي البان لا يشرين إلا غواليا
ترحلت عنكم لي أمامي نظرة وعشر وعشر نحوكم لي ورائيا
ومن حذر لا أسال الركب عنكمو
وأعلاق وجدي باقيات كما هيا
ومن يسال الركبان عن كل غائب
فلا بدّ أن يلقى بشيراً وناعيا
وما مغزل أدماء تزجي بروضة
طلا قاصراً عن غاية السرب وانيا[3]
لها بغمات خلفه تزعج الحشا كجس العذارى يختبرن الملاهيا

---

(١) الغبيط على وزن امير هو المركب (٢) في الديوان (منى)

(٣) المغزل : ذات الغزال ، والادماء وصف من الادمة بالضم وهي لون مشرب سواداً او بياضاً ، المذكر آدم على وزن افعل ، وبه سمي ابونا آدم ، ولم يكن بالتأكيد من الظباء ! والطلا بالفتح — ولد الظبي حين يولد ، والصغير من كل شيء . والواني : المتمهل من الضعف .

يحور اليها بالبغام فتنثني

كما التفت المطلوب يخشى الاعاديا[1]

باروع من ظمياء قلباً ومهجة غداة سمعنا للتفرق داعيا[2]

تودعنا مـــا بين شكوى وعبرة

وقد أصبح الركب العراقيُّ غـــاديا

فلم أر يوم النفر أكثر ضاحكاً ولم أر يوم النفر أكثر باكيا

هذه أيها السادة انشودة القلب الحزين. وبها نختم الحجازيات، وكنت أحب أن أتناولها بالنقد والتحليل، ولكني عرضت لها قبل ذلـــك في مؤلفاتي عدة مرات، وما أدري أين عرضت لهـــا فقد كثرت مؤلفاتي وطالت، وربما كنتم تعرفون عن مؤلفاتي أكثر مما أعرف فارجعوا إلى ما كتبت في تحليل هذه القصيدة إن كنتم تذكرون!

---

(١) يحور: يرجع (٢) ظمياء: معشوقة الشاعر، وهو اسم اصطفاه الشريف وتلميذه مهيار، وبه سميت ظمياء وصيفة «ليلى المريضة في العراق» شفاها الله

بكاء الشباب

بكاء الشباب

أيها السادة

رأيتم غراميات الشريف ، وحجازيات الشريف ، فلم يبق إلا أن تروا ما صنع في بكاء الشباب ، وأنا أستعير هذا العنوان المفجع من كتاب (مدامع العشاق) لأن الشريف بكى شبابه بكاء لم يتفق لشاعر قديم أو حديث ، وما ظنكم بشاعر لم يعش أكثر من سبع وأربعين سنة ، ثم اتفق له أن يبكي شبابه في أكثر من سبع وأربعين قصيدة !

ما ظنكم بشاعر مؤجج الاحساس ، مرهف الذوق ، مفطور القلب يبكي دنيا الحب بكاء الأطفال ، ويخشع أمام ذكريات الشباب خشوع المؤمن أمام المحراب.

ما ظنكم بشاعر لا يمسي ولا يصبح إلا وهو على موعد من عيون الظباء ، ثم يروعه الشيب فجأة فيفهم أن الدهر يؤذنه بالقاء السيف وطيّ اللواء !

ما ظنكم بشاعر عرف ملاعب الهوى على شواطىء دجلة وشواطىء الفرات ، وساقه القلب إلى معاقرة العيون في شتيت البقاع ، وذاق أطايب الخلوات في مكة والمدينة وبغداد ، ثم ينظر فاذا هو مهدد بالرحيل عن فردوس الصبابة العاتية والوجد المشبوب !

ما ظنكم بشاب حاد الشباب عنيفه ، كما عبر الدكتور طه حسين وهو يصف بعض الشبان ، ما ظنكم بشاب هذا حاله يتلفت فيرى دنيا العافية تهجره وتجفوه بلا ذنب ولا جريرة ، فيوقن أن دنيا المحبين إلى زوال !

ما ظنكم بشاعر يؤمن بأن الله لم يخلق أجمل من الشباب ، ولم يبدع أنضر من الحب ، ثم ينظر مرتاعا إلى مصيره في الشباب ومصيره في الحب !

ما ظنكم بشاعر يعيش عزيزاً بين الملاح ، ثم يعترف بالذل والضيم حين يرى في فوديه طلائع البياض ! والبياض يعشق في كل موضع إلا في الرأس ، البياض يعشق في الخدود والصدور والمعاصم والمباسم ولكنه في الشعر بغيض ممجوج .

البياض في الزهر بشير الانس والابتهاج ، ولكنه في الشعر نذير الحزن والاكتئاب .

ولن أنسى ما حييت تلك اللوعة التي سمعتها من المسيو ماسينيوس في باريس سنة ١٩٢٩ وكنا نقرأ بعض الأشعار الغرامية فتنهد وقال : لقد فارقت شبابي ! فقلت : لا تجزع ، فان الشاعر العربي يقول :

يقولون هل بعد الثلاثين ملعب

فقلت وهل قبل الثلاثين ملعب

لقد جلّ خطب الشيب إن كان كلما

بدت شيبة يعرى من اللهو مركب

فتنهد مرة ثانية وقال : ان الشاعر قال الثلاثين ولم يقل الخمسين !

وساعيش دهري كله أتحسر على مصاير من عرفت من الرجال في

باريس ، الرجال الذين رأيتهم يبالغون في التلطف مع النساء ، وماأتعس الرجل الذي لا تبقي له الأيام من مزية غير التلطف والترفق في معاملة الملاح !

أيها السادة

أتحسبونني أبكي شبابي ؟ وهل عرفت نعيم الشباب ، حتى أبكي الشباب ؟

إنما أريد أن أهيّء قلوبكم إلى إحساس الفجيعة التي سيتوجع منها الشريف ، الفجيعة القاسية التي تصور سقوط السماء على الأرض وغيض البحار وزوال الجبال ! ! أريد أن أصنع مثل الذي صنعت وأنا أتكلم عن عمر ابن أبي ربيعة بالجـــامعة المصرية في أواخر سنة ١٩١٨ وكنت يومئذ طالباً لا يدري عواقب ما يصنع ، فقد دعوت المستمعين إلى استقدام صباباتهم ليدركوا مـا تصنع الصبابة بالشاعر اللعوب ، واليوم وأنا ألـقي محاضرتي بكلية الحقوق في أوائل سنة ١٩٣٨ أدعوكم إلى استقدام صباباتكم ... أستغفر الحب ، بل أدعوكم إلى استقدام أساكم وشجاكم لتدركوا مـــا يصنع الحزن على الشباب بشاعر كان وهّاج الشباب .

ومعاذ الأدب أن أدعوكم إلى انتهاب ما توحي الغواية والفتون ، وإن كنت أتمنى أن يكون فيكم خلفاء لعمر بن أبي ربيعة والشريف الرضي ، فقد كان عمر على ضلاله رجلاً شهماً ينزه شعره عن التزلف ، ويترفع عن مدح الخلفاء ، في زمن كان شعراؤه عبيد الخلفاء ، وكان الشريف الرضي على غرامه الأثيم – إن كان في الغرام إثم – رجلا شهّما يحسب له في مصاير الامور ألف حساب ، ولم يمت إلا وهو مهيب جليل .

فان عجزتم عن اللحاق بهذين الشاعرين فلا أقل من أن تدركوا ما يهدد

اللغة العربية من القحط : قحط العواطف والقلوب ، فان اللغات لاترقى بالثرثرة اللفظية التي يغرم بها النحويون والفقهاء ، وإنما ترقى اللغات بمن يبدعون في وصف المشاعر والأحاسيس ، ولكم أن تذكروا كيف ارتقت الانجليزية بامثال شلي وبيرون ، وكيف ارتقت الفرنسية بأمثال ميسيه ولامرتين .

وهل عاشت العبرانية وقد تقوض ملكها منذ أزمان وأزمان إلا بفضل اللوعة المبثوثة في سفر أيوب ؟ ولو أن اللغة العبرانية وقفت عندما يحسن اليهود في الميادين الاقتصادية لأدركها الموت منذ مئات السنين ، ولكنها مضت تشرح آلام اليهود ومآتمهم ومآسيهم وأحزانهم وأشجانهم فعاشت على وجه الزمان .

إنما ألح في شرح هذا المعنى وألح فراراً من شر المتزمتين، فقديقولون : لقد رأت بغداد أديباً يزيّن اللهو والمجون .

وما أنا بلاه ولا عابث ولا ماجن ، وإنما أنا رجل يبكي مصير لغته بين اللغات ، ويؤذيه أن تصبح لغته جافة جامدة غبية بليدة لا تتكلم عن غير أسعار القطن وأسعار الحبوب ، ولا تروج إلا بحرب الهجاء في الجرائد والمجلات .

أريد أيها السادة أن تتعبوا قليلا في إنهاض لغتكم ، وهي لن تنهض إلا يوم تصبح قيثارة تعبر عـــن المآسي الانسانية ، وأخطر المآسي هي مآسي القلوب ، ولن تصلوا إلى هذه الغاية إلا يوم تدوسون النفاق باقدامكم كما داسه عمر الخيام الذي خلق للغة الفارسية ألوفاً وملايين من الأنصار والمعجبين .

لست بلاه ، أيها السادة ، ولست بماجن ولا عابث ، كما قد يتوهم من

لا يفهمون.

والذين قرأوا منكم كتاب (حب ابن أبي ربيعة) يذكرون أني دعوت منذ سنين إلى التنبه إلى أثر المرأة في تلوين العواطف والاحاسيس، وهي دعوة أجد أثرها اليوم عند بعض الادباء في مصر، ولكن أدباء مصر على علمهم وذكائهم لا يهتمون بأسرار القلوب، كما يهتمون باهواء العقول.

...

فما الذي يمنع من إيجاد نهضة أدبية وذوقية في العراق؟

ما الذي يمنع من أن تتذكروا ماضيكم الجميل يوم كان علماؤكم أعلم الناس، وشعراؤكم أشعر الناس؟

ما الذي يمنع من أن تقوم المنافسة بين القاهرة وبغداد؟ المنافسة القوية التي يسمو بها الشعر والفن والخيال؟

أترونني أجدت الاعتذار عن نفسي؟

أنا أريد أن أنقلكم إلى الاجواء الروحية التي عاش فيها الشريف وهو يبكي صباه.

أنا أريد أن ندرك معاً سرائر هذا الروح الحزين لنعيش معه لحظات في فردوس الوجدان.

ويجب أن نتفق أولا على أن الشاعر قد يزوّر عواطفه في بعض الأحيان، فتكون مدائحه مثلا ضرباً من المجاملة أو الرياء، حتى الحب قد تزوّر فيه العواطف فيكون الدمع في عين العاشق كالسم في ناب الثعبان وبعض المحبين يبكون ليخدروا فرائسهم فتعجز عن المقاومة، كما يلدغ الثعبان ليخدر الفريسه ثم يبتلعها بلا عناء.

إن تزوير العواطف مما يعرف الشعراء، ولا أستثني الشريف،

ولكن هناك عاطفة لا تزوير فيها ولا رياء ، وهي سورة الحزن على الشباب .

لكم أن ترتابوا في صدق الشاعر حين يحب أو يبغض ، وحين يمدح أو يعاتب ، ولكن الارتياب في صدقه حين يبكي صباه أمر غير مقبول .

وأعيذكم أن تروا في هذا البكاء لوناً من الضعف ، لا ، فهو من فيض القوة ، وأظنني حدثتكم فيما سلف أن الحزن على ما نفقد هو الشاهد على قوة شعورنا بقيمة ما نفقد . والحزن عاطفة كاد يتفرد بها الانسان من بين سائر الحيوان .

فبكاء الشريف على شبابه هو دليل القوة والحيوية ، وهو يصور إدراكه لمعاني السعادة في الحياة ، ويرينا كيف كانت الدنيا في عينيه وفي قلبه وفي خياله وفي رؤياه ، فالقصائد التي سندرسها معاً في هذا المساء هي عنوان الصدق وعنوان الحيوية ، وهي من شعر العافية لا من شعر المرض ، كما يتوهم بعض من يعقلون .

أيها السادة

نزل الشيب ضيفاً ثقيلا برأس الشريف وهو في الثالثة والعشرين ، والشيب في مثل تلك السن لا يخيف ، ولكن شاعرنا تفجع فقال :

يا ذابلاً صوَّح فينانه قد آن للذابل أن يختلي[1]
حط برأسي يققا أبيضا كأنما حط به منصلا
قل لعذولي اليوم ثم صامتاً فقد كفاني الشيب ان اعذلا

---

(١) الاختلاء هو القلع والنزع

طبت به نفساً ومن لم يجد إلا الردى اذعن واستقبلا

فهو يرى الشيب نذير الموت ، وإن كان لا يزال في ميعة صباه ، ويشير على العذول بالصمت وبالنوم ، فالشيب أقوى زاجر وأعنف عذول .

ثم يراجع نفسه فيرى الشيب نبت الحلم والسيادة :

رأت شعرات في عذاري طلقة
كما افترَّ طفل الروض عن أول الوسمي
فقلت لها ما الشعر سال بعارضي
ولكنه نبت السيادة والحلم
يزيد به وجهي ضياء وبهجة
وما تنقص الظلماء من بهجة النجم

ثم تنقله الايام إلى سن السابعة والعشرين فيقول :

واهاً على عهد الشباب وطيبه
والغصن من ورق الشباب الناضر
سبع وعشرون اهتصرن شبيبتي
وألنَّ عودي للزمان الكاسر
كان المشيب وراء ظل قالص لأخ الصبا وامام عمر قاصر
تعشو إلى ضوء المشيب فتهتدي
وتضل في ليل الشباب الغـــابر
لو يفتدى ذاك السواد فديته بسواد عيني بل سواد ضمائري (١)

---

(١) المراد من سواد الضمائر سواد القلب ، أو ما يسمونه حبة القلب ، وهي في كلامهم سوداء .

أبيـــاض رأس واسوداد مطالب ؟

صبراً على حكم الزمان الجائر !

فماذا ترون؟ هذا شاعر يرحب بالمشيب لو انه ظفر بحقوق المشيب وهي السيادة والملك ، ولكنه يجمع بين النكبتين : بياض الرأس وسواد البخت !

وبعد أن جاوز الثلاثين بقليل وقع له حادث مزعج في الحجاز فقد حلق شعره في منى ، ثم تطلع إلى الشعر وهو مرميّ على الارض فرأى الخصل البيض تختلط بالخصل السود ، فتوقع ان يكون ذلك آخر العهد بغلبة السواد على البياض .

لا يبعدن الله برد شبيبة ألقيته بمنى ورحت سليبا

شعر صحبت به الشباب غرانقا[1]

والعيش مخضرّ الجناب رطيبا

بعد الثلاثين انقراض شبيبة عجباً اميم لقد رأيت عجيبا

قد كان لي قططاً يزيّن لمتي شروى السنان يزين الانبوبا[2]

فاليوم أُطلب الهوى متكلفاً حصراً والقى الغانيات مريبا

لو كان يرجع ميت بتفجع

وجوى شققت على الشباب جيوبا

ولئن حننت إلى منى من بعدها فلقد دفنت بها الغداة حبيبا

ثم ينقله الدهر إلى السابعة والثلاثين فيقول :

راحت تعجب مـــن شيب الم به

وعاذر شيبه التهمام والاسف

---

(١) الغرانق الشاب الابيض

(٢) القطط بالتحريك الشعر القصير الجعد ، وشروى : مثل

ولا تزال هموم النفس طارقة
رسل البياض إلى الفودين تختلف

إن الثلاثين والسبع التوين به عن الصبا فهو مزورٌ ومنعطف
فماله صبوة يبكي بها طلل ولا له طربة يعلى بها شرف

اين الذين رموا قــلبي بسهمهم
ولم يداووا لي القرف الذي قرفوا[1]
يشكو فراقهم القلب الذي جرحوا
مني وتبكيهم العين التي طرفوا

ويطيب لشاعرنا ان يوازن بين جنايات الليالي ، وعنده ان جناية الشيب افظع من جناية الفراق :

قل لليالي قد ملكت فاسجحي
ولغيرك الخلق الكريم الاسجح[2]
من اي خطب من خطوبك اشتكي
وعن اي ذنب من ذنوبك اصفح
ان اشك فعلك من فراق احبتي
فلسوء فعلك في عذاري اقــبح

ضوء تشعشع في سواد ذوائبي لا استضيء به ولا استصبح
بعت الشباب به على مقة له بيع العليم بانه لا يربح[3]
لا تنكرن من الزمان غريبة ان الخطوب قليبها لا ينزح[4]

وهو قد اشار مرة إلى بلواه بالشيب والعذل :

---

(١) القرف قشر الجرح (٢) السجاحة هي السهولة واللين والاعتدال
(٣) المقة : الحب (٤) القليب : البئر

قل للعواذل مهلا فالمشيب غــداً

يغدو عقالا لذي القلب الذي طمحا

هيهات أحوج مع شيبي إلى عذل

فالشيب أعذل ممن لامني ولحا

وتكرير هذا المعنى يشهد بانه كان يعرف أن الجمهور لا ينظر إلى غرامياته بعين الارتياح . وهو يبادر بانتهاب اللذات ويراها إمارة يتولاها الرجل بالشباب ويعزل عنها بالمشيب :

سواد الرأس سلم للتصابي

وبين البيض والبيض[1] الحروب

وولاك الشباب على الغواني فبادر قبل يعزلك المشيب

وهو لا يعجب من أن يعيش بعد فراق الأحباب ، لأنــه عاش بعد فراق الشباب :

غدا في الجيرة الغادين لبي جميعاً ثم راجعني وثابا

لئن فارقتها وبقيت حياً

لقد فارقت بعدهم الشبابا

ويرجع إلى التفكير في النكبتين : بياض الرأس وسواد البخت ، فيقول :

صحبنا الدهر والأيام بيض ونحن نواضر سود الشعور

فلما اسودت الدنيا برزنا لها بيض الذوائب بالقتير[2]

---

(١) النساء البيض والشعرات البيض

(٢) القتير : الشيب

وتقهره البلية ، بلية الشيب ، على عرفان الحق ، فيذكر أن الشيب قد يفسد ما بينه و بين الحسان من و ثيق الصلات .

يا قاتل الله الغواني لقد سقينني الطرق بعيد الجمام (١)
أعرض عني حين ولى الصبا واختلج الهم بقايا العرام (٢)
وشاعت البيضاء في مفرقي شعشعة الصبح وراء الظلام
سيان عندي أبدت شيبة في الفود أو طبق عضب حسام (٣)
ألقى بذل الشيب من بعدها من كنت ألقاه بدلّ الغلام
ترى جميم الشيب لما ذوى يراجع العظلم بعد الثغام (٤)
كم جدن بالأجياد لي والطلى فاليوم يبخلن برد السلام
وكنت إن أقبلت أسمعنني قعاقع الحلي وراء القرام (٥)

و يرى تعبيره بالشيب لؤماً وقلة أدب ، لأنـــه لم يبتدع الشيب حتى يحاسب عليه :

تعيرني شيبي كأني ابتدعته ومن لي أن يبقى بياض المفارق
وإن وراء الشيب ما لا أجوزه بعائق تنسي جميع العوائق
وليس نهار الشيب عندي بمزمع
رجوعاً إلى ليل الشباب الغرانق (٦)

«١» الطرق : الماء الذي خوضته الابل ، ومثله المطروق . والجمام : المـاء الصافي «٢» العرام : القوة والفتك «٣» يريد ان وقع الشيب برأسه مثل وقـــع السيف «٤» الجميم الكثير من كل شيء ، ومثله الجم ، والعظلم على وزن زبرج الليل المظلم ، والثغام على وزن سحاب : نبت أبيض ، ولون ثاغم : أبيض كالثغام .
«٥» القرام على وزن كتاب ستر رقيق «٦» الغرانق بضم الغـــين الشاب الابيض الجميل .

ويؤكد لمحبوبته أنه لم يفوّف برد الشيب، وإنما فوّفته الأيام:

لا تأخذيني بالمشيب فانه تفويف ذي الأيام لا تفويفي[1]
لو أستطيع نضوت عني برده ورميت شمس نهاره بكسوف
كان الشباب دجنّة فتمزقت عن ضوء لا حسن ولا مألوف
ولئن تعجل بالنصول فخلفه روحات سوق للمنون عفيف
وإذا نظرت إلى الزمان رأيته تعب الشريف وراحة المشروف

وتوجه سخرية الغواني فيقول:

تشاهقن لمـــا أن رأين بمفرقي
بياضاً كان الشيب عندي مـــن البدع
وقلن عهدنا فوق عاتق ذا الفتى
رداء من الحوك الرقيق فما صنع ؟
ولم أر عضباً عيب منه صقالة وكان حبيباً للقلوب على الطبع[2]
وقالوا غلام زيّن الشيب رأسه
فبعداً لرأس زانه الشيب والنزع[3]
تسلّى الغواني عنه من بعد صبوة
وما أبعد النبت الهشيم من النجع[4]
وكنّ يخرّقن السجوف إذا بدا
فصرن يرقّعن الخروق إذا طلع

---

(١) التفويف: التلوين

(٢) الطبع بالتحريك هو الوسخ الشديد من الصدأ والشين العيب

(٣) النزع بالتحريك هو انحسار الشعر من جانبي الجبهة

(٤) النجع جمع نجعة بالضم وهي طلب الكلأ في موضعه

ويرى دنياه كلها تذهب بذهاب الشباب : فلا حب ولا قتال ، يرى نفسه كالقوس بلا وتر ، والثعبان بلا ناب ، والغصن بلا ورق ، والغمد بلا سيف ، والخميلة بلا أزهار :

من شافعي وذنو بي عندها الكبر ؟
إن المشيب لذنب ليس يغـــتفر
راحت تريح عليك الهم صاحية
وعنـــد قلبك من غيّ الهوى سكر
رأت بياضك مسودا مطالعه ما فيه للحب لا عين ولا أثر
وأي ذنب للون راق منظره إذا أراك خلاف الصبغة الأثر
وما عليك ونفسي فيك واحدة إذا تلون في ألوانه الشعر
أنساك طول نهار الشيب آخره
وكل ليل شباب عيـــبه القصر
إن السواد على لذاتـــه لعمى كما البياض على علاته بصر
البيض أوفى وأبقى لي مصاحبة
والسود مستوفزات للنوى غدر [1]
كنت البهيم وأعلاق الهوى جدد
وأخلقتك حجول الشيب والغرر [2]
وليس كل ظلام دام غيهبه يسر خاطبه أن يطلع القمر
أما تريني كصل تحت هضبته بالرمل أطرق لاناب ولا ظفر

(١) مستوفزات للنوى : متطلعات للفراق (٢) البهيم : ما لا شية فيه من الخيل ، وأخلقته : أبلته ، والحجول جمع حجل وهو بياض في قوائم الفرس ، والغرر جمع غرة وهي بياض في الجبهة

مسالماً يأمن الأقران عدوته
ملقى الحنية عرّى متنها الوتر[1]
كالفرع ساقط ما يعلوه من ورق
والجفن أفرد عنه الصارم الذكر
إن أشهد القوم لا أعلم نجيهم
ماذا قضوا ويجمجم دوني الخبر[2]
كان الشباب الذي أنضيت مندله[3]
عقب الخميلة لما صوح الزهر
من بعد ما كنت أستسبي المها شغفا
أمست تراع بي الغزلان والبقر
لم أدر أن الصبا تبلى خميصته[4]
وأن منصات ذاك العون يناطر[5]
إن أمس لا يتقي زجري ولا غضبي
ولائذ الحي مملولا لي العمر
فقد أردّ العفرني عن أكيلته[6]
وأزجر الضيغم العادي فينزجر

فما رأيكم في هذه القصيدة ؟

إن جامع الديوان لم يذكر متى قالها الشريف ، ولكن يظهر من روح الشاعر أنه قالها بعد الأربعين ، ونراه مع ذلك يمتلك عزيته أقوى

«١» الحنية . القوس «٢» يجمجم : يكتم «٣» المندل على وزن مقعد هو الخف
«٤» الخميصة كساء اسود مربع له علمان «٥» المنصات : المستوى ، ويناطر : ينحني «٦» العفرني : الاسد ، واللبؤة عفرناة

امتلاك ، وهل يستطيع رجل فان أن يقول هذا البيت :

راحت تريح عليك الهم صاحية

وعند قلبك من غيّ الهوى سكر

ففي هذا البيت صورة شعرية يدرك قيمتها من تستبيهم كرائم المعاني، والشاعر يؤكد لمحبوبته أن قلبه لم يتلون ، وإن كان شعره تلون :

وما عليك ونفسي فيك واحدة إذا تلون في ألوانه الشعر

ويغالط نفسه فيزعم أن السواد عمى على ما فيه من لذات ، وأن البياض بصر على ما فيه من علات ، ويزعم ان الشعر الأبيض أوفى لأنه لا يفارق الرأس ، وأن الشعر الأسود غادر لأنه يهجر وطنه في الرأس ثم لا يرجع .

ان السواد على لذاته لعمى كما البياض على علاته بصر

البيض أوفى وأبقى لي مصاحبة

والسود مستوفزات للنوى غدر

ويبالغ في تضليل نفسه فيزعم أنه كان كالجواد البهيم يوم كان أسود الشعر ، ثم عاد كالجواد الاغر المحجل منذ اختلط البياض بالسواد

كنت البهيم وأعلاق الهوى جدد

وأخلقتك حجول الشيب والغرر

ثم يفيق فيقول :

وليس كل ظلام دام غيهبه يسر خاطبه أن يطلع القمر

ثم يقع الحزن على صدره وقوع الصواعق ، صواعق الغدر التي تتفزع من هولها صدور الاوفياء ، فيقول :

أما تريني كصل تحت هضبته بالرمل أطرق لاناب ولاظفر

وهذا بيت قليل الامثال ، وهو يصور جزع الشريف على صباه، وهل هنـاك صورة تحزن وتوجع كصورة الصل وهو يطرق بالرمل إطراق المساكين لأن الشيخوخة أسقطت ما كان يملك من أنياب حداد ؟

مسالما يامن الاقران عدوته   ملقى الحنية عرّى متنها الوتر

وهل رأى الراءون أذل من القوس وهي معرّاة من الوتر .

ثم ماذا ؟ ثم يرى الشريف أنه أمسى :

كالفرع ساقط ما يعلوه من ورق

والجفن أفرد عنه الصارم الذكر

فهل تحسون جزع الغصن حين يسقط عنه الورق ؟ لقد أحسست هذا المعنى منذ أعوام قبل ان يقول بعض العلمـــاء باحساس النبات . وهل تحسون جزع الغمد على فراق السيف ؟ ارجو ان لا يطويكم الموت قبل ان تدركوا هذه المعاني ، فما أحب لاحدكم ان يلقى الله إلا وهو مـــن الاذكياء .

ثم ماذا ؟ ثم يبكي شاعرنا فيقول :

إن اشهد القوم لا اعلم نجيّهمو   ماذا قضوا ويجمجم دوني الخبر

وهذا البيت مزعج ، وهو يردني إلى حادثة لن انساها طول حياتي ، يوم رأيت ابناء عمي يطوون بعض الاخبار عن ابي ، فمضيت اتوجع في مقال نشرته بجريدة البلاغ ، ثم وقعت مخاوفي مع الاسف القتّال فمات أبي بعد اسابيع :

رحمك الله يا ابي ، وطيّب مثواك !

ثم ماذا ؟ ثم يقول الشريف :

كان الشباب الذي انضيت مندله
عقب الخميلة لما صوّح الزهر

وانتم تعرفون مصاير الخمائل بعد ذبول الأزهار وهلاك الرياحين ثم ماذا ؟ ثم يذكر الشاعر خلاصة حياته فيقول :

من بعد ما كنت استسبي المها شغفاً
أمست تراع بي الغزلان والبقر
لم ادر ان الصبا تبلى خميصته وان منصات ذاك العود ينأطر
إن امس لا يتقي زجري ولا غضبي
ولا بد الحي مملولا لي العمر
فقد ارد العفرني عن اكيلته وازجر الضيغم العادي فينزجر

وليس في الدنيا آلم ولا اوجع من ان يصبح الرجل بلا حول ولا طول بعد ان كان ينتهب طعام الاسود .

وليس هذا كل ما عند الشريف في بكاء الشباب ، فله وقفات يحلل فيها مصاير الرجال ، كأن يقول :

وطيف حبيب راع نومي خياله وعرّفني طول الليالي ملمه
وما زارني إلا ليخجل طيبه
نسيم الصبا او يفضح الليل ظلمه (1)
تطلّع من ارجاء عيني دمعها
وما كان لولا الوجد ينقاد سجمه
الا هل لحب فات اولاه رجعة
وإن زاد عندي او تضاعف وسمه

---

(1) الظلم بالفتح بريق الاسنان

ليالي اسري في اصيحاب لذة ومخ الدجار ار وقددق عظمه
وأغدو على ر يعان خيل تلفها صدور القنا والنقع عال أحمّه
رأيت الفتى يهوى الثراء وعمره
يرى كل يوم زائداً منه عدمه
عقيب شباب المرء شيب يخصه
إذا طال عمر او فناء يعمه
طليعة شيب بعدها فيلق الردى برأسي لها نقع وبالقلب كلمه[٢]
اغالط عن نفسي حمامي وإنما اداري عدواً مارقاً فيّ سهمه
وليس يقوم المرء يومـــاً بحجة
إذا حضر المقدار والموت خصمه
فوا عجباً للمرء والداء خلفه ومن حوله المقدار والموت امه[٣]
يسر بماضي يومه وهو حتفه ويلتذ ما يغذى به وهو سمه
ورود من الآجال لا يستجمنا وورد من الآمال لا نستجمه

فماذا ترون في هذه القطعة ؟ ماذا ترون ؟ حدثوني فاني اخشى ان تقولو انها من الحديث المعاد ، ففيها معان عرفها الشعراء قبل الشريف ، وهذا حق ، ولكن تذكروا ما حدثتكم به في المحاضرة الماضية ، تذكروا اني قلت لكم إن اساس الابتكار هو الاحساس ، فالعاشق الذي يخاطب هواه فيقول « احبك » لا يتهم بالمحاكاة والتزييف بحجة ان هذه الجملة قالها قبله الناس منذ اجيال واجيال ، وكذلك كان شاعرنا ، فهو يحس المعاني اصدق احساس .

«١» الرار هو الذائب من المخ «٣» النقع الغبار ، والكلم : الجرح
«٢» امه : امامه

وقد فهمت من جملة حاله أنه كان يشكو مرضاً يكتمه عن الاطباء ، ولذلك شواهد كثيرة في شعره نكتمها عنكم ، وبسبب ذلك المرض المكتوم لم يعش نصف ما عاش أبوه ، وقد حملته تلك العلة على بغض العيش ، وهذه القطعة تمثل إحساسه بما كان يعانيه ، وقد كان مع ذلك قليل البخت فلم يجد من يتوجع على بلواه ، ولو فكرتم لرأيتم أنه طاف حول المعاني التي فصّلها ناظم « سفر أيوب » ولكن ناظم « سفر أيوب » وجد من ينصفه بعد مئات السنين ، وجد الشاعر الفرنسي العظيم « لامرتين » الذي كتب عن « سفر أيوب » كتاباً وجدانياً حملني وأنا طالب في باريس على أن أبيع ساعتي وطائفة من ثيابي لأشتري نسخة أنيقة من التوراة .

أراكم تستغربون هذا الحديث ؟ لا باس ، فهو والله غريب ، فمن أدب هذا الزمان أن ننسى ماضينا وأن نصرح بان الأدب الحق لا يكون إلا عند اللاتينيين والسكسونيين والجرمان .

ارجعوا إلى هذه القطعة مرة أو مرتين أو مرات ، ثم انظروا كيف بكى شاعرنا مصير الانسانية ، وكيف توجع لمصير الرجال .

انظروا إلى هذين البيتين :

عقيب شباب المرء شيب يخصه
إذا طال عمر أو فناء يعمه
طليعة شيب بعدها فيلق الردى
برأسي له نقع وبالقلب كلمه

انظروا إلى هذين البيتين ثم اسألوا أنفسكم كيف جمع مصاير الرجال في بيتين ، وكيف لوّن هذه الصورة تلويناً أخاذاً تنفطر له القلوب القاسية وتنزعج منه راجحات العقول .

وهذا البيت :

فوا عجباً للمرء والداء خلفه ومن حوله الاقدار والموت أمه

فهو يصور الانسان في حومة حرب مع الداء ومع الاقدار ومع الموت .

ثم ؟ ثم ماذا ؟

ثم يتوجع الشاعر ويلتاع حين يرى مصيره بين العذال وعند الملاح فيقول :

يا عذوليّ قد غضضت جماحي فاذهبا حيث شئتما بزمامي
بعد لوني عمامة الشيب أختا ل ببردي بطالة وعرام ! !
خفضت نزوة الشباب وحال الهم بين الحشا وبين الغرام
غالطوني عن المشيب وقالوا لا ترع انه جلاء الحسام
أيها الصبح زل ذمياً فما أظ لم يومي من بعد ذاك الظلام
أرمضت شمسك المنيرة فوديّ فمن لي بظل ذاك الغمام
قلت ما أمن على الرأس منه
صارم الجد في يد الايام
إن ذنبي إلى الغواني بشيبي ذنب ذئب الغضا إلى الآرام
كن يبكين قبله من وداعي فبكاهن بعده من سلامي

أترون كيف قال الشاعر « يا عذوليّ » والشعراء جميعاً يقولون « يا خليليّ » والبيت الاول مختلس برفق من قول مالك بن الريب .

خذاني فجرّاني ببردي اليكما
فقد كنت قبل اليوم صعباً قياديا

ولكن هذا الاختلاس هو الشاهد على براعة الشريف ، فقد نقل موقف

الموت إلى موقف الشيب ، وصح له أن يقول :

ياعذوليَّ قد غضضت جماحي فاذهبا حيث شئتما بزمامي

وإلى أين يذهب العاذلان بزمام الشاعر الأشيب ؟ إلى أين ؟ إلى المسجد؟ ولكن الشاعر كان يتقرب إلى ربه وهو شاب بالتامل في ملكوت النحور والثغور والخدود والعيون ، واليوم يتقرب إلى ربه بالعظة والاعتبار فيكبر ويسبح كلما رأى جنازة في الطريق !

ويرى الشاعر أن لا مجال لبرد البطالة وبرد الفتك بعد أن لبس عمامة الشيب ، وكيف يفتك أو يصول بعد أن خمدت نزوة الشباب وحال الهم بين حشاه وبين الغرام ؟ ويذكر أنهم غالطوه فزعموا ان الشيب جلاء الحسام فيصرخ كما صرخ من قبله مئات الشعراء :

أيها الصبح زل ذميماً فما أظ لم يومي من بعد ذاك الظلام

أرمدت شمسك المنيرة فوديَّ فمن لي بظل ذاك الغمام

ثم يذكر ما أجاب به من غالطوه :

قلت ما أمن مـــن على الرأس منه

صارم الجد في يد الايام

ولكم أن تتاملوا عبارة « صارم الجد » فهي من غرائب التعابير .

ثم يحدد مصيره فيقول :

إن ذنبي إلى الغواني بشيبي ذنب ذئب الغضا إلى الآرام

كن يبكين قبله من وداعي فبكاهن بعده من سلامي

وهو يصور الشيب أفظع تصوير فيرى موقفه وهو أشيب موقف الذئب من الآرام ، وكان موقفه وهو شاب موقف الذئب مـــن الآرام أيضاً ، ولكن الفرق بين الموقفين بعيد ، فقد كانت الآرام في عهد شبابه

تشتهي أن يفترسها ، ثم أصبحت وهو أشيب يؤذيها الافتراس ·

ثم ماذا ؟ ثم يرى أن لا مفر مـــن تحية الشيب لأنه رسول الموت فيقول :

ألا حيّ ضيف الشيب إن طروقه
رسول الردى قدامه ودليله
لقد كان يبكيني لشعري نزوله فقد صار يبكيني لعمري رحيله

ومعنى ذلك أنه كان يبكي أولا لما حل بالشعر ، فصار يبكي لما حل بالعمر ، فوا حر قلباه !

ثم يعود إلى تحليل تلك التحية في موطن آخر فيقول :

وطارق للشيب حييته سلام لا الراضي ولا الجاذل
أجرى على عودي ثقاف الهوى
جري الثقافين على الذابل
واعدني عقـــر مراحى له لا در در الشيب من نازل
فاليوم لا زور ولا طربة نام رقيبي وصحا عـــاذلي

أترون كيف يرى الشاعر مـــا صنع الشيب في تثقيف هواه ، ولكن أي تثقيف ؟ لقد هذبه تهذيباً أليماً فاقتلع الانابيب التي يتوقـــد بقوتها الصيال.

أترون هذا الميعاد « واعدني عقر مراحى له » وهل هناك موعد أشأم من هذا الموعد ؟ انه موعد فاجع ، الموعد الذي يعقر فيه مراح الشباب، فوا حر قلباه !

ثم؟ ثم ماذا ؟

ثم يرى الشاعر لقاء الشيب أفظع من لقاء العدو فيقول :

ما لقائي من عدوي كلقائي من مشيبي
موقد ناراً أضاءت فوق فوديّ عيوبي
وبياض هو عند البيـ ـض من شر ذنوبي

وهذا حق ، فنحن نحارب الاعداء بعزائم الشباب ، فبأي سلاح نحارب يوم يودّع الشباب .

وفي موطن آخر يعالج الشاعر هذه المعضلة فيقول :

أشوقاً وما زالت لهن قباب وذكر تصاب والمشيب نقاب
وغير التصابي للكبير تعلة وغير الغواني للبياض صحاب
وما كل أيام الشباب مريرة ولا كل أيام الشباب عذاب
أؤمل ما لا يبلغ العمر بعضه كان الذي بعد المشيب شباب
وطعم لبازي الشيب لا بد مهجتي
أسفّ على رأسي وطار غراب

أيها السادة

أخشى أن يطول القول إذا مضينا في استعراض حسرات الشاعر على صباه وهو يبكي نصيبه من الغواني ، فلننتقل إلى موضوع آخر وهو جزعه من الشيب بسبب ما سيضيع من حظوظه في المعالي ، وكان الشاعر يدّخر صباه ليصيب به أعظم الاغراض من هموم الرجـــال ، وانظروا كيف يقول :

ورب دار أولّيها مجانـــبة وبي إلى الدار أطراب واشجان
إذا تلفتّ في أطلالها ابتدرت للعين والقلب أمواه ونيران
كلم بقلبي أداويه ويقرفه طول ادكاري لمن لي منه نسيان
لا للوائم إقصار بلائمة عن العميد ولا للقلب سلوان

على مواعيدهم خلف إذا وعدوا وفي ديونهم مطل وليّان
هم عرّضوا بوفاء العهد آونة حتى إذا عذبوني بالمنى خانوا
لا تخلدنّ إلى أرض تهون بها بالدار دار وبالجيران جيران
أقول للركب قد خوت ركائبهم
من الكلال ومرّ الليل عجلان
مدوا علابيّها واستعجلوا الطلبا إذا رضي بالهوينا معشر هانوا
نرجو الخلود وباقينا على ظعن والدار قاذفة بالزور مطمان
إن قلص الدهر ما أضفاه من جدة
فصنعة الدهر إعطاء وحرمان
كم من غلام ترى أطماره مزقاً
والعرض أملس والاحساب غران
إذا الفتى كان في أفعـــاله شوه
لم يغن أن قيل إن الوجه حسان
لا تطلب الغاية القصوى فتحرمها
فان بعض طلاب الربح خسران
والعزم في غير وقت العزم معجزة
والازدياد بغير العقل نقصان

وهذه الابيات من قصيد طويل ، وهي تريكم انه كان يدخر الشباب عظائم الاعمال :

انظروا ايضاً كيف يتوجع على ما ضاع من أمانيه في المعالي بسبب الشيب فيقول :

فؤادي بنجد والفتى حيث قلبه ... امير وما نجد إليّ حبيب
ومالي فيه صبوة غير انني ... خلعت شبابي فيه وهو رطيب
بلى ، إن قلبي ربما التاح لوحة ... فهل ماؤه للواردين قريب
ألا هل تردّ الريح يا جوّ ضارح
نسيمك يحلو لي لنا ويطيب
وهل تنظر العين الطليحة نظرة ... اليك وما في الماقيين غروب
وما وجد أدماء الاهاب مروعة
لاحشائها تحت الظلام وجيب
ترود طلا اودت به غفلاتها ... وفي كل حيّ للمنون نصيب
بغوم على آثاره وقد اكتسى ... ظلام الدياجي غائط وسهوب
فلما أضاء الصبح لاح لعينها ... دم بين ايدي الضاريات صبيب
كوجدي وقد عرّى الشباب جواده
وغير لون العارضين مشيب
ولكنها الايام امـــا قليبها ... فمكد واما برقها فخلوب
إذا ما بدأن الامر افسدن عقبه
وعفّى على إحسانهن ذنوب.
فلله دري يوم انفث[1] قولة ... لها في رؤوس السامعين دبيب
ولله دري يوم اركب همة ... إلى كل ارض اغتدي واؤوب
وكم مهمه جاذبت بالسير عرضه
وغالبته بالعزم وهو غلوب

---

(١) في الديوان (انعت)

وليل رأيت الصبح في اخرياته
كما انسلَّ مـــن سر النجاد قضيب

سريت به اوفي على كل ربوة وليس سوى نجم عليَّ رقيب
وأزرق ماء قد سلبت جمامه يعوم الشوى في غمره ويغيب
وهاجرة فللت بالسير حدها ولا ظل إلا ذابل ونجيب
ويوم بلا ضوء يترجم نقعه عن الروع والاصباح فيه مريب

حبست به قلباً جرياً على الردى
وقد رجفت تحت الصدور قلوب

وطعنة رمح قد خرطت نجيعها كما ماج فرغ في الاناء ذنوب[1]
وضربة سيف قد تركت مبينة وحاملها عمر الزمان معيب
نظرت إلى الدنيا بعين مريضة ومالي من داء الرجال طبيب

ومن كان في شغل المنى ففراغـــه
مثال الاماني او ردى وشعوب

فمالي طول الدهر أمشي كانني
لفضلي في هـــذا الزمان غريب

إذا قلت قد علقت كفي بصاحب
تعود عواد بيننا وخطوب

وهذه أبيات تفيض بالاحساس وقوة الروح ، وهي تشعركم بان الشاعر كانت له من شبابه غايات اشرف من الانس بالغواني .

ان شاعرنا ، ايها السادة ، لم يبك شبابه وهو عابث ، وإنمـــا بكاه

---

(١) الفرغ مخرج الماء من الدلو والذنوب بالفتح هو البئر

لأنه كان الوسيلة إلى إدراك ما في الدنيا من صبوات وأمجاد ، والصبوة والمجد معنيان من اشرف المعاني ، والشاعر الحق هو الذي يدرك قيمة الصبوة وقيمة المجد .

كان شاعرنا إماماً في الفتوة وفي الفروسية ، فارحموه إن رأيتموه يبكي على شبابه بكاء الاطفال ، فليس في الدنيا ما يستحق ان تذال في سبيله دموع الرجال غير الشباب .

وقديما قيل إن أبا العتاهيه أشعر الناس لأنه قال :

روائح الجنة في الشباب

أيها السادة

لقد طوّفت بكم حول المناحة التي اقامها الشريف على صباه

والآن أنظر فاراكم فريقين : فريق الشباب وفريق الكهول .

أمـــا الكهول فاني ارجو ان لايصنعوا مثل صنيع الشريف فيقتلوا عزائمهم بكثرة النوح على الشباب ، فان لله حكمة عالية حين قضى بأن لا يحمّل نبيّه الرسالة إلا بعد الاربعين ، ليعرف من لم يكن يعرف ان شباب العزائم لا يبتدىء إلا بعد الاربعين .

وأما الشبان الذين واظبوا على هذه المحاضرات من طلبة دار المعلمين العالية وطلبة كلية الحقوق وأدباء بغداد ، فان لي في سبيلهم مع الله كلمة ، ولي في سبيل المجد معهم كلمة .

اما كلمتي مع الله تباركت أسماؤه فهي دعوة أرجو ان تستجاب .

ادعوا الله ان تعيشوا يا تلاميذي ويا حواريَّ حتى تشيب نواصيكم ادعو الله ان يبقيكم جميعاً حتى تطول بلواكم بالشيب ، ادعو الله ان تعيشوا حتى يشيب أبناؤكم وانتم اقوياء .

ادعوُ الله ان يمنحكم البركة في العمر ، والبركة في العافية ، فلا يدركم الشيب إلا ولكم في بلادكم منازل عالية تحقق بعض آمال العراق .

اما كلمتي معكم في سبيل المجـــد فهي كلمة عنيفة ، هي دعوتكم إلى إنفاق الشباب في سبيل المجد ، لا في سبيل الحب ، لأن اكثر الحب في زماننا متاع رخيص لا يذكي الافئدة ولا يوقظ القلوب .

تذكروا دائمـــاً يا تلاميذي ويا حواريّ ان في مقدور الشاب النبيل ان يخلق لنفسه عرائس من الخيال ، تذكروا ان سهر الليل في تحقيق مشكلة فلسفية ، او معضلة علمية ، الذ وامتع من سهر الليل بين غانية وكاس .

تذكروا يا تلاميذي ويا حواريّ ان شهوة المجد اقوى من شهوة الحب ، تذكروا ان عشق المعاني هو الذي يخلق العظماء ، والمرأة نفسها لا تذكي قريحة الرجل فتصيره عظيماً إلا إن كانت عظيمة في الشمائل والخصال .

اني اخاف عليكم سفاهة هذا الزمان ، يا تلاميذي ويا حواريّ ، فان لم يكن لكم بدّ من درس الوجود فادرسوه دراسة الرجال ، وليكن موقفكم منه موقف الطبيب من العليل ، وانا لا ادعوكم الى اغماض اعينكم ، وإنما ادعوكم الى التخلق بالقوة والجبروت فلا يدرككم الشيب إلا بعد ان تكونوا رفعتم قواعد الحياة العلمية والادبية والاقتصادية في هذه البلاد .

وقد رأيتموني اعطف على الشريف وهو يبكي صباه .

وإنما كان ذلك لأني اومن بأن الشريف كان رجلا سليما *Normal*

وكانت مواهبه شبيهة بالمائدة الغريبة الألوان : فكان شاعراً وكان كاتباً وكان نحوياً ، وكان فقيهاً ، وكان فارساً ، وكان سياسياً ، كان يجمع بين الحلاوة والمرارة ، والجد والهزل ، والقلب والعقل .

ومثل هذه الشخصية القوية لا ينظر اليها رجل مثلي بغير العطف والاعجاب .

فمن شاء منكم أن يقضي حق الشباب فأنا حارسه وراعيه ، ولكن على شرط أن يقيم البراهين على أنه رجل عظيم يضر وينفع ، ويبرم وينقض ، ولا يبيت إلا وهو مثقل بهموم الرجال .

تلاميذي الأعزاء :

احترسوا ، ثم احترسوا ، فما توغلت في هـــذه الدراسات الوجدانية لاحوّلكم إلى قوم بكائين ، وإنما قضى واجب الدرس أن نفهم شاعرنا حق الفهم فننظر كيف كان يدرك ما في الوجود من ألوان .

وما جاز له لا يجوز لكم في كل حين .

وليتكم تغنمون لأنفسكم ما غنم لنفسه من القوة والجبروت ، فقد طاب له أن يلهو ويلعب ، ومع ذلك لم يفارق دنياه إلا بعد أن هذّب الوفا من التلاميذ ، وبعد أن ترك ثروة شعرية وأدبية وفقهية تعزّ على من رامها وتطول .

تلاميذي الاعزاء

ستحيون باذن الله حتى تشيب نواصيكم ، وستكون لكم في سبيل المجد وثبات صوادق ، وسيذكر العراق أن أبناءه لم يخذلوه ، وانهم استطابوا في سبيله كل عذاب ، حتى الحرمان من نعيم الشباب .

الشاعر الوصاف

أيها السادة

نحدثكم الليلة عن الوصف في أشعار الشريف ، ونبدأ فنحكم بانه خليق بان يسمى (الشاعر الوصّاف) وإنما سارعنا إلى هذا الحكم لأن الشريف مظلوم من هذه الناحية : فما قال أحد من القدماء أو المحدثين بانه كان من الوصافين ، وليس معنى هذا أنهم أنكروا عليه القدرة على الوصف ولكن لم يتفق لاحدى قصائده أن تظفر بشهّرة وصفية ، فالمتنبي له قصيدة مشهورة في وصف الاسد ، والبحتري له قصيدة مشهورة في وصف إيوان كسرى ، وأبو تمام له قصيدة مشهورة في وصف الزبيع ، وشوقي له قصيدة مشهورة في وصف « أنس الوجود » أشهر القصور في التاريخ .

لم يقل أحد بان الشريف كان من الوصافين ، وتجاهل هذه الناحية يشهد بان النقاد لم يعرفوا هذا الشاعر كما كان يجب أن يعرف .

فلنحاول نحن إنصافه ولنكشف عن عبقريته في هذا الباب .

ونسارع فنقرر أن الشريف لم يصف الخمر ، وكان وصف الخمر من من أهم الفنون عند شعراء العراق .

فما السبب في ذلك ؟

لا موجب للمداورة ، فالشريف لم يكن يرى من الوقار أن يتبذل في وصف الخمر والسقاة كما فعل غيره من الشعراء ، لأنه كان يرشح نفسه لأعظم المناصب الدينية .

وربما جاز أن نحكم بانه لم ير الخمر رأي العين .

وهذا الحكم يبدو غريباً ، ولكن يسهل تصوره حين نذكركم بابن الفارض الذي شغل الناس بقصائده الخمريات ، فمدينة القاهرة لعهد ابن الفارض لم تكن تعرف الخمر ، والبيئة التي نشأ بها ابن الفارض لم تكن تعرف إلا ان الخمر شراب حرام ، ومع ذلك وصفها الشاعر وأجاد الوصف كما اتفق لأحد الشعراء العميان أن يجيد وصف الحروب . وقد رأيت في بغداد ناساً يعرفون تخطيط القاهرة ولم يروها ، وإنما تمثلوا خططها بالسماع عن طريق الجرائد والمجلات[1] .

وما أنكر أن العراق يكاد يكون أقدم شعب عرف الخمر في التاريخ، ولكن الخمر كانت مع ذلك متاعاً يجهله الجمهور في العراق ، وإسراف أبي نواس في وصف الخمر هو الشاهد على انها كانت قليلة الوجود ، ولولا قلتها لما أمكن أن يتهالك عليها كل ذلك التهالك وأن يفتن بها ذلك الفتون وفرنسا التي تشرب الخمر في كل وقت ولا يكاد أهلها يعرفون طعم الماء، فرنسا هذه لم ينبغ فيها شاعر يصف الخمر على نحو ما نبغ أبو نواس، وكان ذلك لأن الناس يقل غرامهم بما يملكون .

فان كنتم في ريب من ذلك فانظروا قول السريّ الرفّاء شاعر الموصل وهو الذي يقول في استهداء النبيذ :

يامن أنامله كالعارض الساري وفعله أبداً عار من العار
أما ترى الثلج قد خاطت أنامله ثوباً يزرّ على الدنيا بأزرار

---

(١) استغرب احد العلماء هذا الحكم وقال : (انا اؤكد ان ابن الفارض كان يعصر الخمر بيديه !) وربما كان هذا العالم اعرف مني بأساليب القوم الصالحين . ولعل الاستاذ محمد بهجة الاثري يحكم بيني وبين ذلك العالم المفضال .

نـــار ولكنها ليست بمبدية نوراً وماء ولكن ليس بالجاري

والراح قد أعوزتنا في صبيحتنا

بيعاً ولو وزن دينار بدينار

فامنن بما شئت من راح تكون لنا

ناراً فانا بلا راح ولا نـــار

فهذا الشعر يشهد بندرة الخمر في تلك العهود .

وانظروا أيضاً قول السلاميّ :

أرسلت أشكو اليكم غدوة ظمأي

وما شككت باني سوف أغتبق

فقد كتبت إلى أن خانني قلمي وقد ترددت حتى ملني الطرق

أنت امرؤ جوده غمر ونائله همر ووبل نداه مسبل غدق

فابعث إليّ بصفو الراح يشبهه

مني قريضي ومنك العرف والخلق

وقد لاحظت مثل هذه الملاحظة في كتاب « النثر الفني » حين تكلمت عن أبي الفرج الببغاء .

قد تقولون : هؤلاء شعراء يستجدون !

وأجيب بأن الشعراء لا يستجدون إلا حين لا يجدون .

كانت الخمر في العراق قليلة جداً ، بدليل اللهـــفة الظاهرة في كلام الشعراء ، وما عرفها الشريف فيما أفترض ، وإن كان صرح بانه عرفها في هذا البيت الحزين :

ويمنعني المدام طروق همي فما يحظى بها إلا نديمي

وهو قد وصف الخمر بالفعل ، ولكنه نص في الديوان على انه سئل

وصفها على لسان بعض الناس فقال :

اسقني فاليوم نشوان والربى صاد وريّان
كفلت باللهو وافية لك نايات وعيدان
جاز[1] وفدالريح فالتطمت منه أوراق وأغصان
كل فرع مال جانبه فكأن الاصل سكران
وكان الغصن مكتسياً من رياض الطل عريان
كلما قبّلت زهرتها خلت ان القطر غيران
ومقيل بين أخبية قلته والحيّ قد كانوا
في أصيحاب مفارشهم ثم أنقاء وكثبان
عسكرت فيها السحاب كما حط بالبيداء ركبان
فارتشفنا ريق سارية حيث كل الارض غدران
فاسقني فالوصل يالفني إن يوم البين قرحان
غير سمعي للملام إذا ضج ساجي الصوت مرنان
رب بدر بت ألثمه صاحياً والبدر نشوان
قدت خيل اللثم أصرفها حيث ذاك الخد ميدان
لي غدير مــــن مقبّله ومن الصدغين بستان
وندامي كالنجوم سطوا بالمنى والدهر جذلان
كم تخلت عن ضمائرهم ثم ألباب وأذهان
خطروا والخمر تنفضهم وذيول القوم أردان
كل عقل ضاع من يقظ فهو في الكاسات حيران

---

(1) فى الديوان (حاز)

إنما ضلت عقولهم حيث يعييهن وجدان
فاختلس طعن الزمان بها إنما الايام أقران

وهي قصيدة تظهر فيها الرشاقة وخفة الروح ، ولكن أين هي من خمريات الفاجر أبي نواس !

وسئل مرة ثانية وصف الخمر فقال :

راح يجول[1] شعاعها بين الضمائر والعقول
فكأنها في كاسها والليل منسحب الذيول
ماء الهجير مرقرقاً في سرة الظل الظليل

وهي أبيات ظريفة جداً ، وقد تجمّل فيها تجمل النبلاء .

ويصح أن نذكركم بما قضينا به يوم درسنا غراميات الشريف ، فقد قلنا انه وقف عند المعاني الوجدانية ، ولم يشغل نفسه بوصف الجوانب الحسية إلا قليلا .

وكذلك فعل حين وصف الصهباء .

...

كان الشريف شاعراً وصافاً ، ولكن أين الشواهد ؟

حدثوا انه سئل وصف فرخ حمامة فقال :

لحبّ إليّ بالدهناء ملقى
لأيدي العيس واضعة الرحال[2]
مناخ مطلّحين تقاذفتهم غريب الحاج والهمم العوالي[3]

«١» في الديوان (يحول) «٢» الدهناء : اسم مكان
«٣» الحاج هي الحاجات . والمطلحون هم المهزولون

أراحوا فوق أعضاد المطايا قدافترشوا زرابيّ الرمال[1]
فبين ممضمض بالنوم ذوقاً وبين مقيّد بعرى الكلال
إلى أن روّع الظلماء فتق أغر كجلحة الرجل البجال[2]
فقاموا يرتقون على ذراها سلاليم المعالق والجبال
وأرقني دعاء الورق فيها على جرح قريب الاندمال
تذكرني بسالفة الليالي وسالفة الغزالة والغزال
وأيام الشباب مساعفات جمعن لنا وأيام الوصال
كأنفاس الشمول كرعت فيها
على ظمأ وأنفاس الشمال
أقول لها وقد رنّت مراحا لبالك يا حمامة غير بالي[3]
تباعد بيننا من قيل شاك تعلق بالغرام وقيل سالي
تريع الى درادق عاطلات وهن بعيد آونة حوالي[4]
لها صنع يطول على طلاها قلائد لا تفصّل باللآلي[5]
عوار لا تزال الدهر حتى تجملها بريط غير بال
وكل أزيرق قصرت خطاه كشيخ الحيّ طاطا للعوالي
مراحك قبل طارقة المنايا وقبل مرد عادية الليالي[6]

«١» الزرابي هي الابسطة ، وهي كلمة قرآنية ولا تزال مستعملة في بلاد المغرب «٢» الجلحة : انحسار الشعر عن الراس ، والبجال على وزن سحاب هو الشيخ الكبير مع جمال ونبل «٣» رنت : صاحت وسجعت

«٤» تريع : ترجع . والدرادق : الاطفال ، مفردها دردق «٥» الصنع بالكسر من معانيه الثوب والمراد به الريش ، والطلى بالضم هي الأعناق

«٦» هذا البيت دعوة الى انتهاب الصفو في ايام الشباب

وهذه القصيدة تمثل مذهب الشريف في الوصف أصدق تمثيل ، فهي في الأصل نظمت في وصف فرخ الحمام ، ولكن فرخ الحمام مع ذلك جاء فرعاً ولم يجيء أصلا ، فقد شغل الشاعر نفسه بوصف مناخ العيس وحولها الركب الطليح ، وشاءت له الشاعرية أن يصف ذلك المنظر أجمل وصف ، فلما وصل إلى فرخ الحمام لم يشغل نفسه بوصفه إلا قليلا .

وهنا نجد الأدلة التي تساعد على الحكم بالقول الفصل ، فالشريف شاعر وصاف ، ولكن الوصف عنده لا يقع إلا عن طريق الاستطراد .

وقد حدثنا كم منذ أشهر يوم تكلمنا عن العلا والمعالي في قصائد الشريف أن جامع الديوان عنون إحدى قصائده بوصف الأسد ، ثم أريناكم أنه ما ما وصف الأسد ، وإنما وصف نفسه ، أعني أنه شبه نفسه بالأسد فساقه ذلك إلى وصف الاسد عن طريق الاستطراد .

وأنتم تذكرون أنه قال :

سيرعب القوم مني سطو ذي لبد
له بعثر أعراس وولدان
لا يطعم الطعم إلا من فريسته إن يعدم القرن يوماً فهو طيان
ماشى الرفاق يراعي أين مسقطهم
والسمع منتصب والقلب يقظان

إلى آخر الوصف .

وكذلك يفعل الشريف في أكثر الاوصاف ، فمن أراد أن يعرف قدرته الوصفية فليتابعه حيث استطرد ، فهنالك قدرته على التصوير والتلوين .

ومن شواهد ذلك قصيدته البائية في وصف الركب ، ركب

الحجيج، ومـا كانت القصيدة نظمت لوصف الركب، ولكن الشاعر استطرد فقال:

ثمانون من ليل التمام نجوبهـا رفيقين تكسونا الدياجي ثيابها
نؤم بكعب العامريّ نجومها إذا ما نظرنا لها انتظرنا غيابها
تقوّم أيدي اليعملات وراءه ونعدل عنها أين أوملرقابها[1]
كأنّا أنابيب القناة يؤمها سنان مضى قدماً فامضى كعابها
كذئب الغضا أبصرته عند مطمع
إذا هبط البيداء شم ترابها
بعين ابن ليل[2] لا تداوى من القذى
يريب أقاصي ركبه ما أرابها
تراه قبوعاً بين شرخي رحاله
كذروبة ضموا عليها نصابها[3]
فمن حلة نجتابهـا وقبيلة نمر بها مستنبحين كلابها
ومن دار أحباب نبلّ طلولها بماء الآماقي أو نحيّي جنابها
ومن رفقة نجدية بدوية تفاوضنا أشجانها واكتئابها
ونذكرها الاشواق حتى تحنّها
وتعدي باطراف الحنين ركابها
إذا ما تحدّى الشوق يوماً قلوبنا
عرضنا له أنفاسنا والتهابها

---

(١) اليعملات: النوق (٢) في الديوان (ليلى)

(٣) المذروبة والمذرّب: السيف

وملنا على الأكوار طربى كأنما
رأينا العراق أو نزلنا قبابها
نشاق إلى أوطاننا وتعوقنا زيادات سير ما حسبنا حسابها
وكم ليلة بتنا نكابد هولها وغرق حصباها إذا الغمر هابها
وقد نصلت أنضاؤنا من ظلامها
نصول بنان الخود تنضو خضابها
وهاجرة تلقى شرار وقودها على الركب أنعلنا المطي ظرابها
إذا ماطلتنا بعد ظمأ بمائها وعج الظوامي أوردتنا سرابها
تمنى الرفاق الورد والريق ناضب
فلا ريق إلا الشمس تلقي لعابها

ففي هذه القصيدة وصف الشاعر القافلة ووصف الدليل أجمل وصف ، وكان السياق يوجب أن تكون القصيدة في التودد إلى رفيقه في السفر وهو ابن ابي الزمان .

أحب أيها السادة أن تذكروا هذه الحقيقة التي استكشفناها بطول الدرس ، وهي ان الوصف عند الشريف يقع غالباً على طريق الاستطراد ، فإن ذكرتم هذه الحقيقة لم يصعب عليكم استقراء ما عنده من جيد الاوصاف .

وقد أشرنا إلى أنه وصف الاسد عن طريق الاستطراد ، فهل تظنون أن ذلك وقع مرة واحدة ، لا ، فهناك شاهد ثان :

بني عامر ما العز إلا لقادر
على السيف لا تخطو اليه المظالم

ضجيج الهوينا يغلب الخصم رأيه
وأكبر سلطان الرجال الخصائم
أرى إبل العوّام تحدى على الطوى
وتأكل حوذان الطريق المناسم
وتظما على الاغذاذ أشداق خيله
وتشرب من أفواههن الشكائم
يحاول أمراً يرمق الموت دونه
لقد زل عنه ما تروم المراوم
أقام يرى شم النسيم غنيمة
ولا بدّ يوماً أن تردّ الغنائم
وتعجبه غر البروق يشيمها
سراعاً إذا مرت عليها الغمائم
ولي بين أخفاف المراسيل حاجة
ستصحب والأيام بيض نواعم
تحاربني في كل شرق ومغرب
وأكبر ظني أنها لا تسالم
أقول إذا سالت مع الليل رفقة
تقاذفها حتى الصباح المخارم
دعي جنبات الواديين فدونها
أشم طويل الساعدين بوارم
إذا هم لم تقعد به عزماته
وإن ثار لا تعيا عليه المطاعم

كان على شدقيه ثغراً وراءه
ذوابل من أنيابه وصوارم
فما جنب الاقران منه فريسة
ولا عاد يوماً أنفه وهو راغم
يرى راكب الظلماء في مستقره
وتستن منه في العرين الغمائم
تمرّ وراء الليل نكتمه السرى
وقد فضحتنا بالبغام الرواسم
له كل يوم غارة في عدوه
تشاركه فيها النسور القشاعم
كان المنايا إن توسد باعه
تيقظ في أنيابه وهو نائم
وما الليث إلا من يدل بنفسه
ويمضي إذا ما بادهته العظائم
وما كل ليث يغنم القوم زاده
إذا خفقت تحت الظلام الضراغم

فهذه القصيدة نظمت في الاصل لغرض غير وصف الاسد ، ثم جاء وصف الاسد عن طريق الاستطراد ، ولكن اي وصف ؟ يكفي انه قال :

كان المنايا إن توسّد باعه
تيقظ في انيابه وهو نائم

وكذلك فعل في قصيدة :

وذي ضغن معسولة كلماته
ومسمومة تترى إلى القلب نبله

فهي قصيدة قالها في محاربة بعض الاعداء ، ولكنه استطرد إلى وصف الاسد فاجاد ، ويكفي أنه قال :

قليل ادخار الزاد يعلم انه
متى ما يعاين مطعماً فهو آكله

وفي مثل ما صنع في وصف الاسد صنع في وصف الحية :

نبهت مني يا أبا الغيـــداق اصم لا يسمع صوت الراقي

وهي قصيدة رآها جامع الديوان في وصف الحية فعنونها بذلك ، وهي حقيقة في وصف الحية ، وإن كانت وقعت على طريق التشبيه ، ولكن جامع الديوان نسي ان الشريف استطرد فوصف قصائد الهجاء أخطر وصف إذ قال :

اهدفت للارعاد والابراق نصب مسيل العارض البعّاق
ترقع عرضاً منك ذا انخراق
كما رفدت النعل بالطراق
حذار من مذروبة ذلاق ترفع عنك جانب الرواق
هواجاً مقطوعـــة الرباق حتى على الآذان والاحداق
تنترع الاصول بالأعراق يلجا بها الحر إلى الاباق
أعقدها مواضع الاطواق لها على الاعناق وسم باق

إلى آخر القصيدة ، وقد وصفت فيها الاهاجي باخطر مما وصفت به الحية .

أيها السادة

ذلكم قولنا في الوصف عند الشريف ، ومنه ترون ان الوصف له عنده خصائص قد تباين ما عند غيره من سائر الشعراء .

وقد يمزج بين الوصف والرثاء كقوله في وصف الحيرة وبكاء ملوكها السالفين من آل المنذر بن ماء السماء .

أين بانوك ايها الحيرة البيـ ـضاء والموطئون منك الديارا
والالى شققوا ثراك من العشـ ـب وأجروا خلالك الانهارا
المهيبون بالضيوف إذا هبّـ ـت شمالا والموقدون النارا
كلما باخ ضوءها اقضموها بالقبيبات منديلا وغارا
ربطوا حولك الجياد وخطوا
لك من مركز العوالي عذارا
وحموا ارضك الحوافر حتى
لقبوا ارضها خدود العذارى
لم يدع منك حادث الدهر إلا
عبراً للعيون واستعبارا
وبقايا من دارسات طلول خبّرتنا عن اهلها الاخبارا
عبقـات الثرى كأن عليها لطميّين ينفضون العطارا
وقباب كأنما رفعوا منـ ـها لمسترشد الظلام منارا
عقدوا بينـها وبين نجوم الافق
من سالف الليالي جوارا
أين عقبانك الخواطف حلقن وأبقين عندك الاوكارا
ورجال مثل الاسود مشوا فيـ ـك تداعوا قوائماً وشفارا

حبذا اهلك الحلون اهلا يوم بانوا وحبذا الدار دارا
لم يكونوا إلا كركب تانى
برهة في مناخه ثم . ارا

وما اظنكم تحتاجون إلى من يرشدكم إلى جوانب الدقة والروعة في هذا القصيد :

وقد مر بالحيرة مرة ثانية فراعه بلاؤها بالزمان وجاش صدره بهذا القصيد :

ما زلت أطرق المنـــازل بالنوى
حتى نزلت منازل النعمان
بالحيرة البيضاء حيث تقابلت
شم العماد عريضة الاعطان
شهدت بفضل الرافعين قبابها
ويبين بالبنيان فضل الباني
ما ينفع الماضين ان بقيت لهم
خطط معمرة بعمر فاني
باق بها حظ العيون وانما
لا حظ فيها اليوم للآذان [1]
وعرفت بين بيوت آل محرق
ماوى القرى ومواقد النيران
ومناط ما اعتقلوا من البيض الظبا
ومجر ما سحبوا من المران

---

(١) هذا بيت جيد

ورأيت مرتبط السوابق للمها
ومعاقل الآساد للذؤبان [١]

الماجين على الملوك قبابهم
والضاربين معاقد التيجان

وكأن يوم الاذن يبرز منهم
اسد الشرى واساود الغيطان

ولقد رأيت بدير هند منزلاً
ألماً من الضراء والحدثان

أغضى كستمع الهوان تغيبت
انصاره وخلا من الأعوان [٢]

بالي المعالم اطرقت شرفاته
إطراق منجنب القرينة عان [٣]

أو كالوفود رأوا سماط خليفة
فرموا على الاعناق بالاذقان

وذكرت مسحبها الرياط بجوّه
من قبل بيع زمانها بزمان

امقاصر الغزلان غيّرك البلى
حتى غدوت مرابض الغزلان [٤]

وملاعب الانس الجميع طوى الردى
منهم فصرت ملاعب الجنّان

«١» وهذا ايضاً بيت جيد «٢» في هذا البيت خيال طريف «٣» القارىء ان يتأمل في اطراق الشرفات وتشبيهها بالبعير المقرون
«٤» وهذا بيت نفيس جداً ، والمعنى قديم ولكن الشاعر اورده مورداً قوياً

من كل دار تستظل رواقهـــا
أدماء غانية عن الجيران
ولقد تكون محلة وقرارة
لأغر من ولد الملوك هجان
يطأ الفرات فناءها بعبابه
ولها السلافة منه والروقان
ووقفت أسأل بعضها عن بعضها
وتجيبني عبر بغير لسان
قدحت زفيري فاعتصرت مدامعي
لو لم يؤل جزعي إلى السلوان
ترقا الدموع ويرعوي جزع الفتى
وينام بعد تفرق الأقران(١)
مسكية النفحات تحسب تربها
برد الخليع معطر الأردان
وكأنما نشر التجار لطيمة
جرت الرياح بها على العقيان
ماء كجيب الدرع تصقله الصَّبا
ونقاً يدرِّجه النسيم الواني
حلل الملوك رمى جذيمة بينها
والمنذرين تغاير الأزمان

---

(١) هذا معنى يكرره الشريف وستراه في المراثي

طردا كدأب الدهر في طرد الالى
وإلى الحفائظ في بني الديان
نعق الزمان بجمعهم عن لعلع وأقض متزلهم على نجران
وكآل جفنة أزعجتهم نبوة نقلت قبابهم عن الجولان
وعلى المدائن جلجلت برعادها
عركا لكلكلها على الايوان
وإلى ابن ذي يزن غدت مرحولة
نفضت حويّتها على غمدان[1]
زفر الزمان عليهم فتفرقوا وجلوا عن الاوطار والاوطان

ويضيق الوقت عن تحليل هذه القصيدة النفيسة ، وقد ظلت على نفاستها منسية ، فلم أر اليها أية إشارة في أي كتاب .

وبكاء الديار قديم في الشعر العربي ، ولكنه كان في الاغلب مقصوراً على ديار الاحباب . وأظهر من شرع مذهب بكاء الآثار بين القدماء هو البحتري في القرن الثالث ، وأظهر من شرع هذا المذهب بين المحدثين هو اسماعيل صبري في أوائل القرن الرابع عشر ، وقد أشرنا في الطبعة الثانية من كتاب (الموازنة بين الشعراء) إلى أن شوقي نقل عن صبرى هذا المذهب ، فوصف الآثار المصرية والاندلسية بقصائد سارت مسير الأمثال .

أما بعد فهل ترونني أقنعتكم بأن الشريف كان من الشعراء الوصافين؟

---

(١) الحوية كساء محشو يوضع حول سنام البعير .

مراثي الشريف

أيها السادة

نحن مقبلون على فن أجاد فيه الشريف وهو الرثاء

ومراثي الشريف تنقسم إلى قسمين : رثاء أهل البيت ، ورثاء الاصدقاء والرؤساء والملوك .

أما رثاء الشريف لأهل البيت فلن أحدثكم عنه في هذه المحاضرة لأنني كتبت عنه فصلا مطولا في كتاب (المدائح النبوية) وقد نشرته مكتبة مصطفى الحلبي منذ ثلاث سنين ، وأنا أكره الحديث المعاد، فمن شاء منكم أن يعرف كيف رثى الشريف أهل البيت فليرجع إلى ذلك الكتاب.

وأما مراثي الشريف للاصدقاء والرؤساء والملوك والخلفاء فلها ألوان ، وقد مرت لبعضها في هذه المحاضرات إشارات ، وما أشرت اليه من قبل لا أعود اليه في هذا المساء .

وأسارع فاقرر ان مراثي الشريف تفصح عن رأيه في دنياه ، وتشهد بانه كان يشعر بأن نهايته قريبة وأن متاعه في الحياة قليل.

ويظهر أن شوقي تأثره من هذه الناحية ، مع الفرق بين الشاعرين فالشريف كان يتألم ويتضجر من سخف الحياة ، وشوقي كان يحب أن يعرف ما بعد الموت ، وقصائد شوقي في هذا المعنى من الاعاجيب في الادب العربي ، ولها مذاق مرير .

والشواهد الاتية تبين لكم ضجر الشريف من دنياه :

قال في تعزية محمد بن الحسن بن صالح عن والدته وقد توفيت سنة ٣٧٨ :

هي ما علمت فهل ترد هومها ... نوب أراقم لا يبلّ سليمها [1]
أرواحنا دين وما أنفاسنا ... إلا قضاء والزمان غريما
فلأيّ حال تستلذ نفوسنا ... نفحات عيش لا يدوم نعيمها
يمضي الزمان ولا نحس كأنه ... ريحح تمرّ ولا يشمّ نسيمها
لم يشفع الدهر الخؤون لمهجة ... في العمر إلا عاد وهو خصيمها
وكأنما الدنيـــا العرورة بردة ... بيدي بلى ويروقنا تسهيمها [2]
يا دهر كم أسهرت لي من ليلة ... قد كنت فيك أنامها وأنيمها
والأرض دار لا يلذ نزيلها ... عمر الزمان ولا يذيم مقيمها [3]
كم باع آباء تفل بطونها ... وأديم جبّار يقدّ أديمها
قبر على قبر لنا وأواخر ... يلقى رميم الاولين رميمها

وقال في رثاء بنت أحد الاصدقاء :

عجزنا عن مراغمة الحمام ... وداء الموت مغرى بالانام
وما جزع الجزوع وإن تناهى ... بمنتصف مـن الداء العـقام
وأين نحور عن طرق المنايا ... وفي أيدي الردى طرف الزمام [4]
نوائب ما أصخن إلى عتاب ... يطول ولا خدرن على ملام
هي الأيام تـــأكل كل حيّ ... وتعصف بالكرام وباللئام
وكل مفارق للعيش يلقى ... كما لقي الرضيع من الفطام
وكم ليد النوائب من صريع ... بداء السيف أو داء السقام

«١» السليم هو الملدوغ او الملسوع ، ويبل : يبرأ ، والاراقم : الحيات

«٢» التسهيم : التخطيط «٣» يذيم : من الذام وهو العيب ، ويقال ذام يذيم ذيماً وذاما فهو مذيم ومذيوم «٤» بيت جيد

فمن ورد المنية عن وفاة كآخر عاثر العينين دامي[1]
وما يغتر بالدنيا لبيب يفرُّ من الحياة إلى الحمام
خطوب لا اجمُّ لها جوادي وعزم لا أحط له لثامي
رأيت الموت يبلغ كل نفس على بعد المسافة والمرام
سواء ان شددت له حزيمي
زماعاً أو حللت له حزامي[2]

وقال أيضاً في رثاء بنت أحد الاصدقاء، وقد حدثناكم من قبل عن غرامه برثاء البنات والنساء :

نخطو وما خطونا إلا إلى الاجل
ونتقضى وكان العمر لم يطل
والعيش يؤذننا بالموت أوله
ونحن نرغب في الايام والدول
ياتي الحمام فينسي المرء منيته
وأعضل الداء ما يلهي عن الاجل
ترخي النوائب من أعمارنا طرفاً
فنستعز وقد أمسكن بالطول[3]
لا تحسب العيش ذا طول فتركبه
يا قرب ما بين عنق اليوم والكفل
نروغ عن طلب الدنيا وتطلبنا
مدى الزمان بأرماح من الاجل

«١» العرنين بالكسر هو الانف «٢» الحزيم على وزن امير هو الصدر
«٣» الطول على وزن عنب هي طاقات الحبل

يقودني الموت من داري فأتبعه
وقد هزمت باطراف القنا الذبل
والمرء يطلبه حتف فيدركه
وقد نجا من قراع البيض والاسل
ليس الفناء بمأمون على أحد
ولا البقاء بمقصور على رجل
تعزّ ما اسطعت فالدنيا مفارقة
والعمر يعتق والمغرور في شغل (١)
ولا تشك زمــــاناً أنت في يده
رهن فما لك بالاقدار من قبل (٢)

وقال في رثاء تقية بنت سيف الدولة:

نغالب ثم تغلبنا الليــــالي وكم يبقى الرميّ على النبال
ونطمع ان يملَّ من التقاضي غريم ليس يضجر بالمطال
أتنظر كيف تسفح بالنواصي ليالينا وتعثر بالجبال (٣)
يحط السيل ذروة كل طود رهوناً بالجنادل والرمال
هي الايام جائرة القضايا وملحقة الاواخر بالاوالي
يمنِّين الورود فإن دنونا ضربن على الموارد بالحبال (٤)
نطنّب للمنون قباب حيّ ويحفزنا المنون إلى الرحال
ونسرح آمنين وللمنايا شباً بين الاخامص والنعال

«١» يعتق يسرع ، والعتق بالتحريك قرب من السير
«٢» القبل على وزن عنب هو القدرة «٣» تأمل هذا الخيال
«٤» وتأمل هذا ايضاً

وبينا المرء يلبسها نعيماً تهجّر ضاحياً بعد الظلال

وقال في رثاء عمر بن اسحق بن المقتدر :

أيرجع ميتاً رنّةٌ وعويل ويشفي باسراب الدموع غليل

شباب الفتى ليل مضل لطرقه وشيب الفتى عضب عليه صقيل

فما لوننا قبل المشيب بدائم ولا عصرنا بعد الشباب طويل[1]

وحائل لون الشعر في كل لمة دليل على ان البقـــاء يحول

نؤمل أن نروى من العيش والردى

شروب لأعمار الرجال اكول

نقول مقيل في الكرى لجنوبنا وهل غير احشاء القبور مقيل

دع الفكر في حب البقاء وطوله

فهمّك لا العـــمر القصير يطول

ولا ترج ان تعطى من العيش كثرة

فكل مقام في الزمان قليل

ومن نظر الدنيا بعين حقيقة درى ان ظلا لم يزل سيزول

وفي رثاء بعض الأصدقاء يقول :

وما العيش إلا غمة وارتياحة ومفترق بعد الدنوّ وملتقى

هو الدهر يبلى جدّة بعـــد جدّة

فيا لابساً أبلى طويلا وأخلقا

فكم من عليّ فيك حلّق وانهوى

وكم من غنيٍّ نال منك وأملقا

وقال في رثاء الصاحب عميد الجيوش :

«١» في الديوان (فمالون ذا ، وما عصر ذا)

وهل نحن إلا مرامي السهام يحفّزها نابل دائب
نسرّ إذا جـــازنا طائش ونجزع إن مسنا صائب
ففي يومنا قدر لا بد[1] وعند غد قدر واثب
طرائد تطلبها النائبات ولا بدّ أن يدرك الطالب

وفي رثاء علي بن الحسين نقيب العباسيين يقول :

تناهى بنا الآجال عن كل مدة وما تنتهي بالطالبين المطالب
نغر بايعاد الردى وهو صادق ونطمع في وعد المنى وهو كاذب

وفي رثاء خاله أحمد بن الحسين الناصر يقول :

لنا كل يوم رنة خلف ذاهب ومستهلك بين النوى والنوادب
وقلعة اخوان كأنا وراءهم
نرامق اعجاز النجوم الغوارب[2]
نوادع أحداث الليالي عـــلى شفاً
من الحرب لو سالمن من لم يحارب
ونأمل من وعد المنى غير صادق
ونأمن من وعد الردى غير كاذب
وما الناس إلا دارع مثل حاسر
يصاب وإلا داجن مثـــل سارب
إلى كم نمنى بالغرور ونثني باعناقنا للمطمعات الكواذب
نزاع إذا ما شيك أخمص بعضنا
وأقدامنا مـــا بين شوك العقارب

---

(١) اللابد : المتخفي ، وهي كلمة لا تزال مستعملة في مصر
(٢) القلعة بالضم الانقلاع ، وهو على قلعة اي على رحلة

وغنى بآمال طوال كأنما أمانيات الخطب دون المطالب

وفي تعزية ابي سعيد بن خلف عن ابنه يقول :

وأرى الناس وافراً وملقّى بالرزايا والارض داراً وقبرا
منزلي قلعة ولبث فهـذا ك مجازاً لنا وهذا مقرّا
كل يوم ننم للدهر عهداً خان فيه ونشتكي منه غدرا
قد أنيخت لنا الركائب فالحا زم عبّا زاداً ووطّا ظهرا
أسمع الحاديان واستعجل الر كب زماعاً إلى المنون ونفرا
كم فقيد لنا طوته الليالي ذقن منه حلواً وذوّقن مرا
وكأن الأيام يدركن ثاراً عندنا فيه او يقضّين نذرا
إنما المرء كالقضيب تراه
يكتسي الاخضر الرطيب ليعرى

ايها السادة

اتعرفون لماذا اطلت في سرد هذه الشواهد؟

إنما أطلت لأني رأيت جماعـة منكم ينكرون فيما سلف ان اكتم الاشعار التي تشهد بأن الشريف كان يعاني علة خفية ، وكانت حجتهم أن الدرس لا يعرف الكتمان ، فليفهموا في هذا المساء كيف كان يدعو إلى انتهاب الصفو من أيام الشباب ، وستعرفون فيما بعد أنه مات في السابعة والاربعين ، وهي ميتة مبكرة جداً ، بالنسبة لرجل مثله نشأ من أسرة كان أكثرها من المعاليق .

...

وهناك جانب محزن في مراثي الشريف هو يأسه من وفاء الباكين ، كان يقول :

كم ذاهب أبكي النواظر مدة ومضى وطاب لمقلة تهويما
أو ثغر محزون تبسّم سلوة والعين لما يرق بعد سجومها

وكان يقول :

من مات لم يلق من يحيا يلائمه فكن بكل مصاب غير محتفل

وكان يقول وهو يرثي الحيرة :

ووقفت أسأل بعضها عن بعضها
وتجيبني عبر بغير لسان
قدحت زفيري فاعتصرت مدامعي
لو لم يؤل جزعي إلى السلوان
ترقا الدموع ويرعوي جزع الفتى
وينام بعد تفرق الأقران

وهو مذهب قديم أعلنه أبو العتاهية إذ قال :

إذا ما انقضت يوماً من الدهر مدتي
فإن غناء الباكيات قليل
سيعرض عن ذكري وتنسى مودتي
ويحدث من بعد الخليل خليل

ويأس الشريف من الدنيا والناس راضه على التأسي والتجلد :

صبرت عنك فلم ألفظك من شبع
لكن أرى الصبر أولى بي من الجزع
وإن لي عـــادة في كل نازلة أن لا تذل لها عنقي من الضرع
لذاك شجعت قلبي وهو ذو كمد
وملت بالدمع عني وهو ذو دفع

ماض على وقعات الدهر إن طرقت
غدا بحمل أذاها جد مضطلع
وحاسر يتلقى كل نائبة
تدمي فيصبر فيها صبر مدّرع
ما غاض دمعي إلا بعد ما انحدرت
غروبه بين منهلّ ومنهمع
لولا اندفاع دموع العين غالبة
لم يعقب الصبر دمعاً غير مندفع
في الياس منك سلوّ عنك يضمره
وقبل يومك يقوى الحزن بالطمع
وهوّن الوجد أن الموت مشترك
فينا وأنا لذا الماضي مـــن التبع
هي الثنايا إلى الآجال نطلعها
فمن حثيث ومن راق على ظلع
هيهات لا قارح يبقى ولا جذع
على نوائب كر الأزلم الجـــذع[1]

ولكن هذا المتجلد تهتاجه اللوعة من حين إلى حين فيقول:

لقد ذهب العيش الرقيق بذاهب
هو الغارب المجزول من ذروة المجد[2]
وإني إذا قالوا مضى لسبيله
وهيل عليه الترب من جانب اللحد

(١) الازلم هو الدهر (٢) الغارب المجزول هو السنام المقطوع

كساقطة إحدى يديه إزاءه
وقد جبّها صرف الزمان من الزند
وقد رمت الايام من حيث لا أرى
صميمي بالداء العنيف على عمد
فلا تعجبا أني نحلت من الجوى
فأيسر ما لاقيت ما حز في الجلد
ولو أن رزءاً غاض ماءً لكانه
لجفّت له خضر الغصون من الرند

ويقول :

جوائب[1] أنباء وددت بانني صممت لها ما أورق العود مسمعا
تصاممت حتى أبلغ النفس عذرة
وما نطق الناعون إلا لأسمعا
بأن أبا حسان كبت جفانه
وأخمد نيران القرى يوم ودعا
أعز على عيني من العين موضعاً
وألطف في قلبي من القلب موقعا
أكن غليلي بالضلوع ولم أجد
لقلبي وراء الهم مذ غاب مطلعا
وفارقني مثل النعيم مفارقاً
وودعني مثل الشباب مودعا

---

(١) في الديوان (جوانب)

غلا الوجد بي حتى كأن لم أر الردى
يخط لجنب قبل جنبك مصرعا
فإن لم تزل نفسي عليك فإنها
ستنفد أنفاساً حراراً وأدمعا
فيا لائميّ اليوم لا صبر بعده
فطيرا باعباء اللامة أوقعا

ويقول :

لله نفرة وجد لست أملكها إذاتذكرت إخوان الصفاء معي
يواصل الحزن قلبي كلما فجعت
يدي بحبل من الأقران منقطع
ما لليالي يرنقن المجاجة من
شربي ويوبين مصطافي ومرتبعي
عدت عوادي الردى بيني وبينكم
وأنزلتك النوى عني بمنقطع
وشتتت شملك الأيام ظالمة فشمل دمعي ولبي غير مجتمع
أخيّ لا رغبت عيني ولا أذني
من بعد يومك في مرأى ومستمع

وما هذه أشعاراً ، إن هي إلا أنفاس حرار

أيها السادة

كان الشريف من كرام الاوفياء ، ومراثيه أصدق شاهد ، وقد حدثتكم من قبل أنه كان يفي لاصدقائه فيرثيهم يوم الموت ، وبعد أن يطول عهدهم بالموت ، ونحدثكم الآن أنه صنع مثل هذا الصنيع مع بهاء

الدولة ، فقد رثاه بالكافية التي سمعتموها من قبل ، وبعد أن مر على موته ثمانية عشر شهراً حنّ اليه فقال :

أظن الليالي بعدكم ستريع   فلم يبق لي من رائع فتروع
خذي عدة الصبر الجميل فانه   لكل نزاع يا أميم نزوع
وقد كنت أبكي للأحبة قد أني
لقلبي سلوٌ واطمأْن ولوع
ولكنا أبكي المكارم أخليت   منازل منها للندى وربوع
وهل أنا جاز ذلك العهد بالبكا
ولو أن كحل الماقيين نجيع

إلى آخر القصيدة .

أيها السادة

لم يبق إلا أن نشير إلى أورع مراثي الشريف ، وأروع مراثيه اثنتان: العينية :

منابت العشب لا حـــام ولا راع
مضى الردى بطويل الرمح والباع

والرائية :

ألقي السلاح ربيعة بن نزار   أودى الردى بقريعك المغوار

والعينية من غرائب المراثي ، والشاعر يجلجل فيهـــا جلجة قوية ، تشهد بقدرته الفائقة على افتراع المعاني ، وانظروا كيف يقول :

منابت العشب لا حام ولا راع
مضى الردى بطويل الرمح والباع

القائد الخيل يرعيها شكائمها
والمطعم البذل للديومة القاع[1]

من يستفز سيوفاً من مغامدها
ومن يجلل نوقاً بين أنساع[2]

يسقي أسنته حتى تقيء دماً
ويهدم العيس من شد وإيضاع

ما بات إلا على هم ولا اغتمضت
عيناه إلا على عزم وإزماع

خطيب مجمعة تغلي شقاشقه
إذا رموه بابصار وأسماع

لما أتاني نعيّ من بلادكم
عضضت كفي من غيظ على الناعي

أبدي التصامم عنه حين أسمعه
عمداً وقد أبلغ الناعون أسماعي

وأما الرائية فهي من غرائب الشعر الجزل ، وقد شرحها ابن جني في حياة الشريف ، واهتمام الاستاذ بشرح قصائد تلميذه من أطايب البر والرعاية ، وقد عرف التلميذ لاستاذه هذا الفضل فمدحه ورثاه ، وكان يعبر عنه في مؤلفاته بعبارة (قال شيخنا أبو الفتح) .

وانظروا كيف ابتدأ الشاعر هذا القصيد :

---

(١) الديومة : الفلاة الواسعة

(٢) الأنساع جمع نسع بالكسر وهو سير تشد به الرحال

ألقي السلاح ربيعـــة بن نزار
أودى الردى بقريعك المغوار
وترجّلي عـــن كل أجرد سابح
ميل الرقاب نواكس الأبصار
ودعي الاعنة من أكفك انها
فقدت مصرّفها ليوم مغار
وتجنبي جرّ القنا فلقد مضى
عنهن كبش الفيلق الجرار
وليغد كل مغرّض من بعده
مغرى بحل معاقد الاكوار
قطع الزمان لسانك العضب الشبا
وهدا تخمّط فحلك الهدار
واجتاح ذاك البحر يطفح موجه
وطوى غوارب ذلك التيار
اليوم صرحت النوائب كيدها
فينا وبان تحامل الاقدار
مستنزل الاسد الهزبر برمحه ولّى وفالق هامة الجبار
وتعطلت وقفات كل كريهة أبداً وحط رواق كل غبار

أيها السادة

قد رأيتم ألواناً من عواطف الشريف في مراثيه ، ورأيتم كيف صورت تلك المراثي فهمه لقيمة الحياة ، ورأيتم كيف كان يتجلد وكيف كان يرتاع .

وما أحسبني في حاجة إلى النص على قوة الشاعرية في مراثي الشريف .

ويهمني أن أذكركم بان تلك المراثي جمعت خصائص الشمائل العربية أوما كان يتصور الشريف من الشمائل العربية ، والرجوع اليها في الديوان يفتح أمامكم باباً من فهم النفوس والقلوب والعقول ، ويغريكم بالتطبع والتخلق بما كان عند أسلافنا الاقوياء من طباع وأخلاق .

ما كان الرثاء عند أسلافنا بكاء ونواحاً ، وإنما كان تسجيلا لخلائق الابطال ، وتذكيراً بما يجب أن يتخلق به الرجال .

قصيدة الوداع

وقف الشريف على منازله قبل أن يموت بنحو عام واحد فقال:

أمل من مثانيها فهذا مقيلها　　وهذي مغاني دورهم وطلولها
حرام على عيني تجاوز أرضها　　ولم يرو أظماء الديار همولها
وقد خالطت ذاك الثرى نفحاتها
وجرّت على ذاك الصعيد ذيولها
حقوف رمال ما يخاف انهيالها　　وأغصان بان ما يخاف ذبولها
إذا ما تراءاها اللوائم ساعة　　فاعذرها فيمن يحب عذولها
رضينا ولم تسمح من النيل بالرضا
ولكن كثير لو علمنا قليلها
شموس قباب قد رأينا شروقها　　فيا ليت شعري أين منا افولها
تعالين عن بطن العقيق تيامناً　　يقوّمها قصد السرى ويميلها
فهل من معيري نظرة فاريكها　　شرقيّ نجد يوم زالت حمولها
كطامية التيار يجري سفينها　　أو الفلج العلياء يهفو نخيلها[1]
ولم تر إلا ممسكاً بيمينه　　رواجف صدر ما يبل غليلها
ومختنقاً من عبرة ما تزوله　　ومختبطاً في لوعة ما يزولها
محا بعدكم تلك العيون بكاؤها　　وغال بكم تلك الاضالع غولها

«١» الفلج جمع فلجة بالضم ، من الفلج وهو شق الأرض للزراعة

فمن ناظر لم تبق إلا دموعه ومن مهجة لم يبق إلا غليلها
دعوا لي قلباً بالغرام أذيبه عليكم وعيناً في الطلول أجيلها
سقاها الرباب الجون كل غمامه
يهش لها حزن الملا وسهولها[1]
نجائب لا يودي بأخفافها السرى
وإن طال بالبيد القواء ذميلها
فكم نفحة من أرضها بردت حشا
وبلّ غليلا من فؤاد بليلها
منازل لا يعطي القياد مقيمها مغالبة ولا يهـــان نزيلها
خليليّ قد خف الهوى وتراجعت
إلى الحلم نفس لا يعز مذيلها
فلست ابن أم الخيل إن لم أمل بها
عوابس في دار العدوّ أبيلها
إذا انجفلت من غمرة ثاب كرها
وعاد إلى مرّ المنايا جفولها
يزعفر من عض الشكيم لعلبها
ويرعد من قرع العوالي خصيلها[2]
ونحن القروم الصيد إن جاش باسها
تغودر مرعى ذودها ومقيلها
بأيماننا بيض الغروب خفائف نغول بها هام العدا وتغولها

«١» الرباب الجون : السحاب الاسود
«٢» الخصيل على وزن امير هو الذنب ـ بالتحريك ـ

تفللن حتى كاد من طول وقعها
بيوم الوغى يقضي عليها فلولها
قوائم قـــد جربن كل مجرب
بضرب الطلى حتى تفانت نصولها
وأودية بين العراق وحاجر ببيض المواضي والعوالي نسيلها
يمدّ بدفّاع الدماء غثاؤها
ويجري باعناق الرجال حميلها[1]
إذا هاشم العلياء غب عبابها
وسالت باطناب البيوت سيولها
مدفّعة تحت الرحال ركابها
محفزة تحت اللبود خيولها
رأيت المساعي كلها وتلاحقت
فروع العلا مجموعة واصولها
إذا استبقت يوماً تراخى تبيعها
وخلّى لها الشأو البعيد رسيلها[2]
وإما أحالت للطعان رماحها
وشن عليها للقاء شليلها[3]
فثم عوال ما ترد صدورها وثم جياد ما يفل رعيلها
وثم الحماة الذائدون عن الحمى عشية لا يحمي النساء بعولها
أبي ما أبي لا تدّعون نظيره رديف العلا من قبلكم وزميلها

«١» الحميل هو من السيل الغثاء «٢» الرسيل : المراسل
«٣» الشليل : الدرع الصغيرة

هو الحامل الأعباء كلّ مطيقها
وعجّ عجيج الموقرات حمولها
طويل نجـــاد يحتبي في عصابة
فيفرعها مستعلياً ويطولها
إذا صال قلنا أجمع الليث وثبة
وإن جاد قلنا مدّ من مصر نيلها
حليم إذا التفتت عليه عشيرة تطاطا له شبانها وكهولها
وإن نعرة يوماً أمالت رؤوسها أقام على نهج الهدى يستميلها
وأنظرها حتى تعود حلومها
وأمهلها حتى تثوب عقولها
ولم يطوها بالحلم فضل زمامها
فتعثر فيه عثرة لا يقيلها
فمن بأسه المرهوب يرمي عدوها
ومن ماله المبذول يودي قتيلها
أكابرنا والسابقون إلى العلا
ألا تلك اساد ونحن شبولها
وإن أسوداً كنت شبلا لبعضها
لمحقوقة أن لا يذل قتيلها

وهذه القصيدة على قوتها ليست إلا زفرة شاعر مودّع ، ولا سيا هذه الأبيات :

محا بعدكم تلك العيون بكاؤها
وغال بكم تلك الاضالع غولها

فمن ناظر لم تبق إلا دموعه
ومن مهجة لم يبق إلا غليلها
دعوا لي قلباً بالغرام أذيبه
عليكم وعيناً في الطلول أجيلها

ونقل صاحب التبيان أن أبا الحسن النحوي قال: دخلت على السيد المرتضى طاب ثراه يوماً وكان قد نظم أبياتاً فوقف به بحر الشعر فقال: خذ هذه الأبيات إلى أخي الرضي وقل له تممها، وهي هذه:

سرى طيف سلمى طارقاً فاستفزني
سحيراً وصبحي في الفلاة رقود
فلما انتبهنا للخيال الذي سرى
إذ الارض قفر والمزار بعيد
فقلت لعيني عاودي النوم واهجعي
لعل خيالاً طارقاً سيعود

قال: فاخذتها ومضيت إلى السيد الرضي وأعطيته القرطاسة فلما رآها قال: عليَّ بالمحبرة، وكتب:

فردت جواباً والدموع بوادر
وقد آن للشمل المشت ورود
فهيهات من ذكرى حبيب تعرضت
لنا دون لقياه مهامه بيد

فاتيت بها إلى المرتضى، فلما قرأها ضرب بعمامته الأرض وبكى. وقال: يعز عليَّ أخي، يقتله الفهم بعد أسبوع. فما جاء الاسبوع إلا وجاء نعي الرضي ومضى إلى سبيله.

وهذه نادرة يستبعدهـا الناس ، ولكنها طريفة ، إذ تجعل موت الشريف بالشعر شبيهاً بحال من يخنقه أرج الازهار فيموت .

وكانت وفاتـه رحمه الله في أوائل المحرم سنة ٤٠٦ ورثاه أخوه المرتضى فقال :

يا للرجال لفجعة جزمت يدي ودِدتها ذهبت عليَّ براسي
ما زلت آبى وردها حتى أتت فحسوتها في بعض ما أنا حاسي
ومطلتها زمناً فلما صممت لم يثنها مطلي وطول مكاسي
لا تنكروا من فيض دمعي عبرة
فالدمع خير مساعد ومواس
واهاً لعمرك من قصير طاهر ولرب عمر طال بالأرجاس

ورثاه تلميذه مهيار بقصيدة يحفظها أكثر الادباء :

أقريش لا لفم أراك ولا يـد
فتواكلي غاض الندى وخلا الندي

ورثيته أنا بقصيدة طويلة جداً ، هي هذا الكتاب .

المراجع

شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد

المجازات النبوية للشريف الرضي

مختار رسائل الصابي (طبعه الامير شكيب ارسلان)

ترجمة الشريف للاستاذ عبد الحسين الحلي (المنشورة تصديراً لكتاب حقائق التاويل)

يتيمة الدهر للثعالبي

الاعلام للزركلي

تجارب الامم لابن مسكويه (طبع القاهرة بعناية مرجليوث)

تاريخ ابن الاثير (الجزء التاسع)

النثر الفني

مختصر تاريخ بغداد للاعظمي

الموازنة بين الشعراء

القاموس المحيط للفيروزابادي

معجم البلدان لياقوت

تلك المؤلفات هي أهم ما رجعنا اليه للاستئناس او الاستشهاد أو التحقيق، وهناك مراجع ثانوية قد نكون أشرنا اليها في الهوامش .

قوافي الجزء الثاني

اعلام الجزء الثاني

استدراك

مرت إشارة في الصفحة السابعة والسبعين إلى قصيدة

ما بعد يومك ما يسلو به السالي ومثل يومك لم يخطر على بالي

وقلنا انها في رجل كانت له شخصية ولا نعرف السبب في طيّ اسمه عن الناس .

ولكننا في الجزء الاول قررنا ان هذه القصيدة قالها الشريف في رثاء الطائع ، فليعرف القراء اننا استندنا في هذا الحكم على ابن الاثير فقد اشار إلى ان الشريف قال هذه القصيدة في رثاء الطائع ، وعبارة ابن الاثير توضح ما أبهم الديوان .

حائز الليسانس في العلوم الفلسفية والأدبية
والدكتوراه في الآداب « من الجامعة المصرية »
ودبلوم الدراسات العليا في الآداب « من مدرسة اللغات الشرقية في باريس
والدكتوراه في الآداب « من جامعة باريس »
ثم الدكتوراه في الآداب « من الجامعة المصرية »
والمفتش بوزارة المعارف المصرية
واستاذ الادب العربي بدار المعلمين العالية في بغداد

فهرس الجزء الثاني